الأعلام من الأدباء والشعراء

مكتبة لسان العرب



بشار بن برد

حياته وشعره

إعداد

د. علي نجيب عطوي
دكتوراه دولة في الآداب
أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

بشار بن برد

حياته وشعره

إعداد
د. علي نجيب عطوي
دكتوراه دولة في الآداب
أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

مكتبة لسان العرب

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

كم هي تلك الشخصيات التي ازدحم بها المجتمع العباسي من شعراء وأدباء وفلاسفة، وباتت كل شخصية منها علماً ظاهراً في فن من الفنون، ترتقي منزلة بفنها لا يقدر أحد على الارتقاء إليها، ومن جاهد مجشماً النفس ليدانيها منزلة، فإنما في أغلب الأمر يكون مقلداً غير مجدد.

والأمر لا يحتاج إلى كبير عناء واجتهاد لمعرفة السبب في ازدهار المجتمع العباسي بهذه الطاقات الهائلة من فحول الشعراء والأدباء، والمفكرين.

فهذا العصر انفرد عن غيره من العصور في عملية صهر للثقافات المكتسبة من الأمم غير الإسلامية في كأس الثقافة العربية ليشربها الإنسان العربي صافية عذبة المذاق. فمن من الشعراء، والأدباء، والمفكرين من العرب، لم تظهر بصمات الفكر اليوناني، أو الهندي، أو الفارسي في شعره، أو أدبه، أو فلسفته. ولا ينصب هذا التأثير على الجزئيات بل يصل الأمر به إلى نشوء مدارس تلهج بالمنطق الفكري القديم، كمدرسة المتصوفة، أو المعتزلة، أو المرجئة، أو غيرها من الحركات الفكرية العربية الإسلامية.

ومن أراد التجربة فليأخذ مطلق شخصية أدبية أو فكرية، وليقم بتشريح أفكارها، وتضامين معانيها، وليستخلص بالتالي إلى أية درجة اكتسبت هذه الشخصية من المعارف القديمة.

وبشار بن برد كان من تلك الشخصيات التي نهلت من الفكر القديم حتى ارتوت منه، فظهر هذا في ملامح شخصيته، وأدوات تعبيره.

وبشار بن برد من تلك الشخصيات التي تنافس الباحثون على الغوص في أعماقها لتتعرف على مكامنها، وما تنطوي عليه من كنوز كثيرة متنوعة الألوان والمذاق، فهو من الشخصيات المخضرمة التي عاشت ردحاً من حياتها في العصر الأموي، فشهدت الصراعات القائمة في ذلك العصر حول موضوعات مختلفة؛ ففي هذا العصر ازدهر شعر النقائض، حتى أصبح حديث الناس الذين انقسموا بالنسبة إليه فرقاً وشيعاً، بين أبطال هذا الشعر أعني بهم جرير والفرزدق، والأخطل، وفي هذا العصر ازدهر أيضاً شعر الغزل بنوعيه العذري والصريح، وظهرت لهما مدرستان: المدرسة العذرية بزعامة جميل، والمدرسة الإباحية بزعامة عمر بن أبي ربيعة وكان لكل مدرسة خصائصها ومميزاتها المغايرة للخصائص والمميزات للمدرسة الأخرى.

لقد نظر بشار إلى هذه المعارف كلها، وأراد أن يتذوق من كل واحدة قدراً، فأراد أن يكون هجاء، بل وبارعاً في الهجاء، فتصدى لجرير وهجاه لعله يرد عليه فيذاع اسمه في

الآفاق، لكن هذا الأمر لم يتم له لأن جريراً كان يعرف ما يهدف إليه بشار فترفع عنه، ولهذا قال بشار: «هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرني، ولو أجابني لكنت أشعر الناس»[1].

ثم عكف على الغزل، فاختار منه الغزل الصريح، وجرى مجرى عمر بن أبي ربيعة في أسلوبه وتعبيره، وحاول أن يدانيه بهذا اللون، بل ويتفوق عليه في هذا المجال، لكنه أخفق في ذلك فهو تلميذ لعمر، والتلميذ مهما حاول الجهد، فإنه سيعجز عن أستاذه في إدراك خصائص مدرسة كان هو مؤسسها.

ولما انتقل بشار إلى المرحلة الثانية من حياته، وهي المرحلة العباسية كانت ملامح شخصيته قد بدأت تأخذ منحىً آخر، لقد اكتسب في هذه المرحلة كما قلنا غذاء لم يكن له من قبل، فقد عكف على التراث الفكري الإنساني المكتسب يدرسه ويتأمله، حتى انبهر به، ووجد أن من لا يأخذ به لا يمكن أن يكون مجدداً، أو متألقاً في شعره. من هنا نجد سمة علم الكلام، والاحتجاج بادية في شعره على العموم.

وإذا كان بشار لم يحز على رضا جرير وهو شاب، أو يداني عمر بن أبي ربيعة في الشطر الأول من حياته، فقد استطاع أن يشق لنفسه في المرحلة الثانية من حياته طريقاً خاصاً به، وأن يشكل مدرسة يكون زعيماً لها مع حماد عجرد وهي

---

(١) نكت الهميان ص ١٢٧.

مدرسة الهجاء التي وقفت جنباً إلى جنب مع مدرسة الخمريات بزعامة أبي نواس، ومدرسة الزهد بزعامة أبي العتاهية.

صحيح أن بشاراً قد تزعم مدرسة الهجاء في العصر العباسي الأول، لكنه أحار الناس في عملية التفضيل بين أنواع شعره، وأيها فيه أبرع، والناس على حق، فهو قد وازن من حيث الإجادة بين الأنواع الرئيسية لشعره وهي الغزل، والمدح والهجاء.

لكن الحقيقة التي يخلص المرء إليها هي: أن عاهة العمى التي ابتلي بها بشار قد أثرت تأثيراً كبيراً في شعره وخاصة في الغزل والهجاء؛ فقد عجز بشار عن الإتيان بما جاء به المبصرون. وقد اعترف بشار بذلك في شعره. من هنا نجده يلتجىء إلى ما يخفف عنه وطأة هذه العاهة، فيستخدم وسائل أخرى قد تعوض عليه ما فاته، كاستخدامه للقلب مكان العين في الغزل، والكلام السليط مكان الوصف الحي في الهجاء، هذا ما سنلاحظه عند تعرضنا لهذه الفنون في شعره.

هذه المدارك الواسعة التي حظي بها بشار، جعلتني أعجب به، وأحب البحث عن القضايا التي اختلف حولها الباحثون عند تناولهم لفنون شعره، لعلي أطلع برأي خاص حول هذه الشخصية، يضاف إلى ما قيل عنه من آراء. ثم إن شخصية بشار كانت من الشخصيات الهامة التي شغلت بال المجتمع العباسي طيلة فترة حياته منذ أن كان صغيراً حتى وافته المنية ضرباً بالسياط على يدي الخليفة العباسي المهدي.

وقد تناول بشاراً بالدراسة كثير من الباحثين، ولكن كل واحد منهم تناوله من الزاوية التي رآه من خلالها، وأهم الذين درسوه إبراهيم المازني في كتابه (أعلام الإسلام بشار بن برد). وقد رأى المازني في حديثه عن بشار أنه لا مفر من أن يحدث كف البصر أثراً في مزاج الإنسان وتفكيره وإحساسه، فما يبقى للمكفوفين من وسائط الإحساس بالجمال، وإدراك معانيه لأن السمع واللمس والشم، وهي أقل من العين إدراكاً؛ إذ كانت العين أوثق اتصالاً بالعقل في هذا المجال منظراً، ومعان، وتبصراً.

والعين أقدر من السمع واللمس على إفادة الاستمتاع به لأنها هي تعين على تأليف الصور الذهنية، وهي صور تتألف من أشتات أخرى علقت في الذاكرة، وحصلت بالنظر.

وبناءً على هذا يكون بشار في نظر المازني قد قصَّر في وصفه لمغنية عندما قال:

وكـان رجـع حـديـثـهـا
قـطع الـريـاض كسين زهـراً

وكـان أولى به كمـا يقول المـازني أن يكون تشبيهـاً لأنفاسها وطيبها، وإن كان مقبولاً بمعنى أن نسيم الريـاض ينعش الجسم، ويحيي النفس فما لمثل بشار القدرة على إثارة المتعة بالرياض إلا بأرجائها، وهي بغير سواء والصحراء، وأما

---

(١) إعلام الإسلام بشار بن برد للمازني ص ٥٢.

بها من ابن أبي قحافة، وكان موقف علي الرافض للتحريض نابعاً من حرصه على عدم سفك دماء المسلمين ومن تمسكه بوحدة الأمة بعد فقد نبيّها، ورغم قناعته المطلقة بحقه عباس محمود العقاد فقد رأى في كتابه «مراجعات في الأدب والفنون» أن بشاراً ينقل الوصف أحياناً مما يرى إلى ما يحس، فيصف الهوى والمرأة كأنهما شيء مصبوب على القلب والجسم كقوله:

إذا نظرت أصبت عليك صبابة
وكادت قلوب العاشقين تطير

كما رأى أن طبيعة بشار وتربيته قد أرادتا به أن يكون كما كان ماجناً خليعاً، مستبيحاً لشهوات الحس ومطالب الجسد، وكان لا بد له أن يوطن نفسه على ما يلقى من السخرية والعبث في سبيل ذلك، وأن يستهدف للضحك والابتسام والولع به، وأن يخلع الحياء، فلا يبالي بشرف ولا دين[1].

وأما طه الحاجري في كتابه (بشار بن برد) فيعالج فن التشبيب عند بشار بن برد، ويرى أن بشاراً لا يقف عند لون واحد من ألوان الحديث عن المرأة، والهوى كما يزعم البعض، وإنما يأخذ في ضروب شتى؛ منها ما يصور الحب

---

(١) مراجعات في الأدب والفنون لعباس محمود العقاد ص ١٠٣.

الجسدي الماجن العابث، ومنها ما يصور الحب القلبي المشبوب الخ.

ثم يقول الحاجري: ان بشاراً في هذا كله يفتن في المعاني، والصور، والألفاظ، والموسيقى الشعرية إلى غاية القصيدة[1].

أما حسين منصور في كتابه (بشار بن برد بين الجد والمجون) فيرى أن بشاراً يتذوق الشعر تذوق الشاعر الفنان فيعطي كل شاعر منزلته، ويضعه حيث وضعه شعره[2].

كما أن هناك بعض الدراسات الأخرى التي تناولت بشاراً منها: دراسة لحسنين القرني، وأخرى لمحمد علي الطنطاوي وثالثة لحنا نمر.

فالفصل الأول جاء للحديث عن أصول بشار نسبه أسرته حياته وثقافته.

والفصل الثاني تناول مذهب بشار وانتماءه العقائدي.

والفصل الثالث تناول موضوعات بشار الشعرية، وأهمها: الهجاء والمدح والغزل.

---

(١) بشار بن برد لطه الحاجري ص ٤٢.

(٢) بشار بن برد بين الجد والمجون ص ٢٨.

والفصل الرابع: خصص لمعرفة أراء الناقـدين بشعر بشار.

أما الفصل الخامس: فكان لدراسة الخصائص الفنية لشعر بشار.

وأخيراً الخاتمة. وقد أرفقت في نهاية البحث المصادر والمراجع.

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

الفصل الأول

أصول بشار بن برد: «نسبه، أسرته، كنيته ولقبه، حياته، ثقافته وفاته».

ذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني[1] في ترجمته بشار عدة أسماء عَرَّفَت ببشار وتحدثت عنه، وذكرت أن بشار بن برد هو ابن يرجوخ من طخرستان من سبي المهلب بن أبي صفرة، وأنه يكنى بأبي معاذ.

كان بشار وأبوه برد من قِن خيرة القشيرية امرأة المهلب بن أبي صفرة والتي وهبت برداً بعد أن زوجته لامرأة من بني عقيل، فولدت له امرأته وهو في ملكها بشاراً سنة ٩٥ للهجرة، فأعتقته العقيلية لأنه ولد مكفوفاً، ولقب بالمرعث؛ إما لأنه كان في أذنه وهو صغير رعاث وهو القرطة كما قال أبو عبيدة، أو لأنه كان بقميصه جيبان؛ جيب عن يمينه، وجيب عن شماله، فإذا أراد لبسه ضمه عليه من غير أن يدخل رأسه فيه، وإذا أراد نزعه حل إزاره وخرج منه، فشبهت تلك الجيوب بالرعاث لاسترسالها، وتدليها كما قال ابن سلام، أو لأنه قال:

---

(١) أنظر الأغاني طبعة دار الكتاب ج٣ ص ١٤٣ وتاريخ بغداد للبغدادي ج٧ ص ١١٢ طبعة دار الكتاب العربي.

قـــال ريـــم مُـرعَــثٌ

ســاحــر الــطرف والــنــظرْ

لـــســـت والله نـــائــلي

قــلت أو يــغــلبُ الــقــدر

أنــت إن رمــت وصــلــنــا

فــانجُ، هــل تـدرك القمــرْ

وكان برد أبو بشار طياناً يضرب اللَّبن. وكان له أخوان يقال لأحدهما بشر وللآخر بشير، وكانا قصابين يبيعان اللحم، ولم يكونا سويين، إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبتر اليد، وكان بشار باراً بهما.

نظم الشعر وهو صغير، وكان منذ صغره محباً للهجاء لطبيعة في نفسه فقد ذكر أنه كان متبرماً لنفسه، كارهاً للناس، ولهذا كان يسأل الرحمن أن يريحه من هؤلاء. فليس عجيباً إذاً أن يتخذ الهجاء وسيلة يدافع بها عن نفسه. وهجاء بشار للناس، أغضب هؤلاء عليه، فكانوا يأتون إلى أبيه يشكونه إليه، فيضربه ضرباً شديداً، مما يثير هذا العمل غضب أمه، فتعمد للدفاع عنه. وتسترحم أباه به قائلة لم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه، فيقول أبوه: بلى؟ والله إني لأرحمه، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلي، فسمعه بشار، فطمع فيه فقال له: يا أبت إن هذا الذي يشكونه عني إليك هو قول الشعر، وإني إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي. فإن شكوني إليك فقل لهم: أليس الله يقول: ﴿لَّيس على الأعمى حرج﴾ فلما عاودوه

بشكواه قال لهم برد ما قاله بشار، فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار.

وأما حياة بشار، فمن أراد أن يدرسها فما عليه إلا أن يلم بجوانب ثلاث أسهمت إسهاماً كبيراً في تكوين شخصية بشار. وهذه الجوانب هي: عماه، فقر أسرته، وولاؤه القولي.

أما بالنسبة للجانب الأول وهو عمى بشار، فـإن هذه العاهة قد شكلت عند شاعرنا عقدة نفسية جعلته يضيق بما حوله، ويشعر أن الكون المحيط به، ليس إلا سجناً قد وضع فيه مدى حياته، من هنا نشأت عنده قضية التبرم من الناس، والسخط عليهم. وكان يعبر عن هذا بقوله: الحمد لله الذي ذهب ببصري؛ فقيل له: ولما يا أبا معاذ؟ فيقول لئلا أرى من أبغض.

ولم يكن العمى هو وحده الذي ابتلي به بشار، بل نجد قبح شكله؛ فقد كان ضخم الجثة، عظيم الخلق والوجه، مجدراً، طويلاً، جاحظ المقلتين، قد تغشـاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس عمى، وأفظعهم منـظراً[1]، فليس عجيباً لرجل هذه صفاته، من أن يكون مثار سخرية واستهزاء من معاصريه الذي كانوا يتحرشون به، ويسخرون منه. فكان يقابل هذه السخرية بغضب شديد يصدر عنه تفوه بكلمات وألفاظ نابية فاحشة.

وإذا كان في صباه قد تحرش بالناس حتى شكوه لابيه،

---

(١) مرآة الجنان لليافعي ج١ ص ٣٥٣ ونكت الهميان ص ١٢٧.

فإنه في كبره كان الناس هم الذي يتحرشون به، ويستنفرونه، فيسمعون منه ما لا يرضيهم.

نستمع إلى هذه القصة التي تثبت صحة ما نقول:

ذكر أبو الفرج الأصفهاني نقلاً عن مخلد بن حازم أنه قال: مررت أنا ورجل من عُكْل من أبناء سوار بن عبد الله بقصر أوس[1] فإذا نحن ببشار في ظل القصر وحده، فقال لي العُكْلي: لا بد لي من أن أعبث ببشار؛ فقلت: ويحك، مه لا تعرض بنفسك وعرضك له؛ فقال: إني لا أجده في وقت أحلى منه في هذا الوقت؛ قال: فوقفت ناحية ودنا منه فقال: يا بشار؛ فقال: من هذا الذي يكنيني ويدعوني باسمي؟ قال: سأخبرك من أنا، فأخبرني أنت عن أمك: أولدتك أعمى أم عميت بعدما ولدتك؟ قال: وما تريد إلى ذلك؟ قال: وددت أنه فسح لك في بصرك ساعة تنظر إلى وجهك في المرآة، فعسى أن تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرك؟ فقال: ويحكم! من هذا؟ أما أحد يخبرني من هذا؟ فقال له: على رسلك، أنا رجل من عكل وخالي يبيع الفحم بالعبلاء[2] فما تقدر أن تقول لي؟ قال: لا شيء، اذهب بأبي أنت في حفظ الله[3].

---

(١) قوس أوس بالبصرة ينسب إلى أوس بن ثعلبة بن زفر بن وديعة، وكان فورلي خراسان في عهد الدولة الأموية.

(٢) ذكر ياقوت في معجمه أن العبلاء اسم علم لصخرة بيضاء إلى جنب عكاظ، وقال العبلاء بلدة كانت لخثعم، وذكر البكري في معجمه ص ٤٩٢، ٦٤١ فقال: العبلاء قرية وتربة وادٍ من أودية الحجاز.

(٣) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٧٢.

ونستمع إلى هذا الحوار الذي جرى بين بشار وبين حمدان الخراط:

والحوار يبدأ عند رؤية بشار حمداناً وهو يتخذ جاماً لإنسان، فسأله بشار أن يتخذ له جاماً فيه صور طير تطير، فاتخذه له وجاءه به، فقال له: ما في هذا الجام؟ فقال: صور طير تطير؟ فقال له كان ينبغي أن تتخذ فوق هذه الطير طائراً من الجوارح كأنه يريد صيدها، فإنه كان أحسن؛ قال: لم أعلم؛ قال: بلى قد علمت، ولكن علمت أني أعمى لا أبصر شيئاً! وتهدده بالهجاء، فقال له حمدان: لا تفعل فإنك تندم، قال: أو تهددني أيضاً! قال: نعم؛ قال: فأي شيء تستطيع أن تصنع بي إن هجوتك! قال: أصورك على باب داري بصورتك هذه وأجعل من خلفك قرداً ينكحك حتى يراك الصادر والوارد؛ قال بشار: اللهم أخزه، أنا أمازحه وهو يأبى إلا الجد[1].

ولنستمع إلى هذه المجادلة بين بشار وأحد المجان الذي رأى بشاراً ينشد الشعر فقال له: استر شعرك هذا كما تستر عورتك؛ فصفق بشار بيديه وغضب وقال له: من أنت ويلك؟ قال: أنا أعزك الله رجل من باهلة، وأخوالي من سلول، وأصهاري عكل، واسمي كلب، ومولدي بأضاخ، ومنزلي بنهر بلال، فضحك بشّار ثم قال: اذهب ويلك! فأنت عتيق لؤمك، قد علم الله أنك استترت مني بحصون من حديد[2].

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٣.

(٢) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٥٩.

ونستمع أخيراً إلى هذه القصة لـرجل اعتـرض على وصف بشار لجسمه بالنحول وهو سمين، فقد مر أحد الكوفيين ببشار وهو منبطح في دهليزه كأنه جاموس، فقال له الكوفي: يا أبا معاذ، من القائل:

في حلتـي جسـم فتـى نـاحـلٍ
لـو هـبـت الـريـح بـه طـاحـا

قال: أنا؛ قال الكوفي: ما حملك على هذا الكذب؟ والله إني لأرى أن لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك! فقال بشار: من أين أنت؟ قال الكوفي: من أهل الكوفة؛ فقال: «يا أهل الكوفة لا تدعون ثقلكم ومقتكم على كل حال»[1].

أرأيت كيف كان يعبث ببشار، ويسخر منه لا في أخلاق مكتسبة يعير بها، بل من خَلْقٍ خلقه الله به، وهو لا دخل له فيه.

إن نزعة السخرية والاستهزاء طبيعة جبل الإنسان بها، هذه الحقيقة عرفها بشار، وأدرك أنه إن لم يتسلح بسلاح يدافع به عن نفسه، هتكت كرامته، وهتك عرضه، لهذا نراه يتسلح بسلاح ماضٍ فتاك وهو الهجاء المقذع الذي لا يترك شيئاً إلا ويتعـرض لـه بـالسـوء ليخـرس المتـطفلين. ويسكت المتحرشين. ويدفع الناس إلى العطاء مكرهين، فلنسمعه كيف يبرر موقفه من الهجاء.

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

قيل بشار: إنك لكثير الهجاء! فقال: إني وجدت الهجاء المؤلم. أخذ بضبع[1] الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر، وإلا فليبالغ في الهجاء يخاف فيعطى[2].

من هذا الاعتراف الصريح لبشار ندرك أهمية تسلح بشار بسلاحين هما: الهجاء والمدح، فإن لم يصلح أحدهما صلح الثاني.

أما الجانب الثاني الذي يجب أن ينظر من خلاله إلى شخصية بشار فهو فقر أسرته، فوالد بشار كما علمنا كان قِناً ولما أعتق عمل طياناً، وكان يعجز دائماً عن تأمين الرزق الكافي لأسرته، هذه الحقيقة عرفها الطفل بشار منذ طفولته، ولهذا رأى أن ينتزع قوته من فم من حرمه منه، إما مدحاً أو هجاء، ولما اعترض عليه والده هجاء الناس قال له بشار ببساطة: إما أن يسمح له بالهجاء، وإما أن ينتظر الفقر والعوز، هذه العقدة تنامت مع شخصية بشار، وأصبحت ملازمة لها، ولهذا السبب نرى بشاراً متلهفاً دائماً لتقبل العطاء، ولا يمتلك الصبر عليه، فيعمد إلى التهديد والوعيد، وكل الناس عرفت وسمعت كلامه السليط، وقدرته الفائقة على الذم في الهجاء، من هنا نرى

---

(١) الضبع: العضد.

(٢) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ٢٠٧.

الناس يهابونه، ويخافون منه. من الخلفاء مروراً بالأمراء والوزراء إلى عامة الناس.

أما الخلفاء فإنه لا يرعوي عن ذمهم إذا قصروا في عطائه، والدليل على ذلك جوابه على سؤال سأله إياه رجل قائلاً: إن مدائحك عقبة بن مسلم فوق مدائحك كل أحد؛ فقال بشار: إن عطاياه إياي كانت فوق عطاء كل أحد، دخلت إليه يوماً فأنشدته:

حرم الله أن ترى كابن سَلْمٍ
عقبة الخير مطعم الفقراءِ
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو
ف ولكن يلذ طعم العطاء
يسقط الطير حيث ينتشر الحبُّ
وتغشى منازِل الكرماء

فأمر لي بثلاثة آلاف دينار، وها أنا قد مدحت المهدي وأبا عبيد الله وزيره، وأقمت بأبوابهما حولاً فلم يعطياني شيئاً، أفألام على مدحي هذا!(١).

أما الأمراء؛ فقد حدث بشار وقال:

دخلت على الهيثم بن معاوية وهو أمير البصرة، فأنشدته:

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩٤.

إن السلام أيها الأمير
عليك والرحمة والسرورُ

فسمعته يقول: إن هذا الأعمى لا يدعنا أو يأخذ من دراهمنا شيئاً؛ فطمعت فيه فما برحت حتى انصرفت بجائزته[١].

وأما الوزراء، فقد ورد بشار على خالد بن برمك وهو بفارس فامتدحه؛ فوعده ومطله؛ فوقف على طريقه وهو يريد المسجد، فأخذ بلجام بغلته وأنشده:

أظلت علينا منك يوماً سحابة
أضاءت لنا برقاً وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامع
ولا غيثها يأتي فيروي عطاشها

فحبس بغلته وأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: لن تنصرف السحابة حتى تبلك إن شاء الله[٢].

ومثاله ما ذكر أن عقبة بن مسلم أمر له بخمسين ألف درهم، فأخرها عنه وكيله ثلاثة أيام، فأمر بشار غلامه أن يكتب على باب عقبة عن يمين الباب:

ما زال ما منيتني من همي
والوعد غم فأزحْ من غمي
إن لم ترد حمدي فراقب ذمي

---

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ٢٠٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

فلما خرج عقبة رأى ذلك، فقال: هذه من فعلات بشار، ثم دعا بالقهرمان[1] فقال: هل حملت إلى بشار ما أمرت له به؟ فقال: أيها الأمير نحن مضيقون[2] وغداً أحملها إليه؛ فقال: زد فيها عشرة آلاف درهم واحملها إليه الساعة؛ فحملها من وقته[3].

أرأينا كيف كان بشار ضيق الصدر، لا يتحمل طول بال الممدوح ولو لأيام. فيعمد إلى تهديده للحصول على ما يريد. وما ذلك إلا بعقدة النقص الموجودة في نفس بشار تجاه الفقر، فهو يخافه، ويتصوره خيالاً يرافقه، فيعمد إلى طرده بالاستجداء بشعره.

وبشار حتى ولو كان يمتلك المال، فإنه حريص عليه يخاف تبذيره، وما قصته مع أبي الشمقمق إلا خير مثال على ذلك. فقد جاءه أبو الشمقمق يوماً يشكو إليه الضيقة ويحلف له أنه ما عنده شيء؛ فقال له بشار: والله ما عندي شيء يغنيك ولكن قم معي إلى عقبة بن مسلم، فقام معه فذكر له أبا الشمقمق وقال: هو شاعر وله شكر وثناء، فأمر له بخمسمائة درهم؛ فقال له بشار:

يا واحد العرب الذي
أمسى وليس له نظيرُ

(١) القهرمان: الوكيل أو أمين الدخل والخرج.
(٢) مضيقون: ضيقو الحال.
(٣) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٨٢.

لــو كــان مــثــلك آخــر
مــا كــان فــي الــدنــيــا فــقــيــرُ

فأمر لبشار بألفي درهم؛ فقال له أبو الشمقمق: نفعتنا ونفعناك يا أبا معاذ؛ فجعل بشار يضحك[1].

رأينا كيف بخل بشار على أبي الشمقمق، وكيف استغله لتحقيق مكسب خاص به، فجائزة أبي الشمقمق كانت لا تساوي شيئاً أمام جائزة بشار، ثم لاحظنا كيف استغل بشار عواطف عقبة بن مسلم ليثير مشكلة تثير الأحاسيس والعواطف هي استخدامه للفظة (فقير)، وقضية الإحسان للفقراء، فأبو الشمقمق تحول في نظر بشار ليس إلى شاعر موهوب، بل إلى مجرد فقير يجب الإحسان إليه.

أما الجانب الثالث الذي أثر في شخصية بشار فهو ولاؤه القومي.

لقد علمنا أن بشاراً ولد لأب مولىً لسيدة عقيلية، وأن هذه السيدة أعتقت بشاراً لأنه ولد أعمى لا تنتفع منه بشيء. ورغم أن بشاراً أصبح حرّاً إلا أنه في الواقع كان بحاجة إلى المجتمع الذي ينتمي إليه ويشد به عضده. لهذا نراه يبقى على ولائه لبني عقيل، وينسب نفسه إليهم. ورغم محاولته التغلب على عامل الضعف في هذا الانتماء، لأنه انتماء العبد لسيده، لا السيد للسيد، فإنه بقي في قرارة نفسه يشعر بالمهانة،

---

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٧٨.

وخاصة إذا عرفنا أنه يعيش في بيئة عربية متعصبة أشد التعصب للعنصر القومي، أو للولاء القبلي. لهذا نراه تائهاً بين الافتخار بانتمائه الجديد للعرب، وهو مُوَلد أمه عربية وأبوه فارسي. وبين انتمائه القديم للفرس وهو أعجمي الأب.

فمرة نراه يتخذ حلاً وسطاً فيجمع بين الطرفين العرب والفرس، فيفتخر بهما كما حدث حين سأله الخليفة المهدي: فيمن يعتد: فقال بشار: أما اللسان والزي فعربيان، وأما الأصل فعجمي كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين.

ونبئت قوماً بهم جنة
يقولون من ذا وكنت العلمْ[1]
ألا أيها السائلي جاهداً
ليعرفني أنا أنف الكرمْ[2]
نمتْ في الكرام بني عامر
فروعي وأصلي قريش العَجَمْ
فإني لأغني مقام الفتى
وأصبي الفتاة فما تعتصم[3]

فبشار يركز هنا على قضية هامة هي أهمية الشخص بحد ذاته، ثم أهمية انتمائه، أما بالنسبة للأمر الأول فإن بشاراً واثق من أهميته في أعين الناس، فهو شاعر فذ قلما جهل اسمه

---

(١) الجنة: الجنون.

(٢) وقد وردت في غير موضع (جاهلاً).

(٣) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٣٨.

أحد، وإذا ما جهله أحد فإنه من عداد المجانين، إذ كيف يمكن لإنسان أن لا يرى الجبل العالي العظيم الارتفاع. ثم إن لبشار أهمية أخرى هي شخصيته المحببة التي تهواها مطلق فتاة جميلة يتمناها بشار. والميزة الثالثة ولا ندري إذا كان صادقاً فيها هي ادعاؤه الكرم، بل أنف الكرم، والأنف كما نعلم هو أعز شيء عند الإنسان.

ثم تأتي قضية انتمائه القومي، فيفتخر بالعرب، ولا ينسى بشار أن يعيد عزته وكرامته إلى انتمائه لبني عامر، كما يحرص على إذابة الفروق بين العرب والفرس، فيدمج قريشاً بالعجم، ويجعلهما كُلّاً واحداً.

فبشار هنا يلعب دور الوسيط بين العرب والفرس، لكننا في مكان آخر، نراه ينسى أصله الأول، ويذوب في أصله المكتسب الثاني حين يفتخر بالعرب عامة وقومه خاصة، فيتلبس ثوب عمر بن كلثوم في مواقفه الخطابية، وهو يقف مدافعاً عن قومه ضد خصومه، فيقول بشار مفتخراً:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة
ذرى منبر صلى علينا وسلما[1]

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١.

فبشار يفتخر بانتمائه إلى مضر بأشد ما يكون الافتخار والعصبية القبلية.

فغضبة بشار فيها العز والقوة حتى درجة المبالغة في وصفها.

ولنستمع إلى بشار وهو يفتخر بولائه في قيس أيضاً.

أمنت مضرة الفحشاء أني
أرى قيساً تضر ولا تضارُ[١]
كأن الناس حين تغيب عنهم
نبات الأرض أخطاه القطارُ[٢]
وقد كانت بتدمر خيل قيس
فكان لتدمر فيها دمارُ
بحيٍّ من بني عيلان شوس
يسير الموت حيث يقال ساروا[٣]
وما نلقاهم إلا صدرنا
بريٍّ منهم وهم حِرارُ[٤]

فالشاعر كما بين لنا في أبياته أنه مطمئن البال، غير خائف من أذى المسيئين لأنه في حمى قيس التي تضع الضرر في الناس، ولا أحد يستطيع أن يلحق بها الضرر، وهذه القبيلة

(١) الفحشاء: جمع فاحش كجاهل وجهلاء، والفاحش: السيء الخلق.
(٢) القطار: جمع قطر وهو المطر.
(٣) شوس: جمع أشوس. وهو الذي ينظر بمؤخر عينيه.
(٤) الحرار: جمع حران وهو الشديد العطش.

لا تبعث الأمن في أبنائها فحسب بل في جميع الناس، فهي بالنسبة إليهم الغيث وهم النبات، فإذا ما قدر أن ابتعدت قيس، فإن الناس ستموت، كما يموت النبت عطشاً لغياب المطر. ولقيس مواقع مشهورة أنزلت فيها بأعدائها أشد الأذى والإذلال، ومن هذه المواقع موقعة تدمر التي داستها خيل قيس، وأنزلت فيها الخراب.

ثم يصف بشار بعض خصال بني قيس غير الشجاعة، فإذا هم لهم الجلالة والمهابة، يزأرون كالأسود، ورغم هذه المهابة فإنهم أبرار يقدمون للناس المأكل والمشرب حتى يرتوون، بينما هم يبقون عطاشاً جياعاً.

هذه الصورة التي نرى فيها بشار بن برد وهو يفتخر بالعرب، ويعدد خصالهم الحميدة، سرعان ما تنقلب إلى صورة معاكسة تماماً إذا ما تحرك فيه عامل الضعف تجاه عنصره الأعجمي، فتراه ينتفض لكرامته انتفاضة المتألم من شيء جرحه. فلنستمع إلى هذه القصة التي تبين لنا هذه الحقيقة.

قال أبو عبد الله المقري الذي كان يقرأ في المسجد الجامع بالبصرة. دخل اعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه بزة الشعراء، فقال الأعرابي: من الرجل؟ فقالوا: رجل شاعر؛ فقال: أمولى هو أم عربي؛ قالوا: بل مولى؛ فقال الأعرابي: وما للموالي وللشعر! فغضب بشار

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٣٩.

وسكت هنيهة، ثم قال: أتأذن لي يا أبا ثور؟ قال: قل ما شئت يا أبا معاذ؛ فأنشأ بشار يقول:

خليلي لا أنام على اقتسار
ولا آبي على مولىً وجار(١)
سَأخبر فاخر الأعراب عني
وعنه حين تأذن بالفخارِ
أحين كسيت بعد العُرْي خزاً
ونادمت الكرام على العقارِ
تفاخر يابن راعية وراعٍ
بني الأحرار حسبُك من خسارِ
وكنت إذا ظمئت إلى قراح
شركت الكلب في ولغ الإطار(٢)
تريغ بخطبة كسر الموالي
وينسيك المكارم صيد فارِ(٣)
وتغدو للقنافذ تدريها
ولم تعقلْ بدرَّاج الديار(٤)

---

(١) القسر: الإكراه، القهر. أبى إيباء عن الشيء: امتنع.
(٢) القراح: من الماء وغيره. والولغ: الكلب أو نحوه الإناء منه شرب. من معاني.
الإطار: ما حول البيت فلعله المراد هنا وأن الكلب يلغ في المياة الراكدة حول الدور.
(٣) تريغ: تريد وتطلب وهو المناسب لسياق الكلام.
(٤) تدريها: تختلها لتصيدها. والدراج: القنفذ.

وتتشح الشمال للابسيها
وترعى الضأن بالبلد القفار[1]

مقامك بيننا دنس علينا
فليتك غائب في حر نارِ

وفخرك بين خنزير وكلب
على مثلي من الحدث الكبار[2]

فقال مجزأة للأعرابي: قبحك الله! فأنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك.

أرأيتَ كيف انتفض بشار للرد على ذلك الأعرابي لأنه أهانه بانتمائه إلى الموالي، وتحقيره إياهم، فإذا ببشار يكيل له الصاع صاعين، ويفند مزاعمه بأن العرب هم أعز من غيرهم، فإذا ببشار أيضاً يعطينا صورة بشعة للحياة المزرية التي يحياها البدوي. ويعدد أنواع الحيوانات التي يعيش على لحومها؛ فإذا هي حيوانات يمقتها الإنسان العادي، ويأنف من أكل لحمها. في حين يجهد البدوي في مطاردتها عبر الصحراء القاحلة ليصطادها، ويتنعم بأكل لحمها. كما أن البدوي يشرب من الماء الذي تشرب منه سائر الحيوانات ومنها الكلاب؛ هذا الإنسان الذي يعيش على هذا النمط من الجهل والخشونة في المأكل والمشرب، يحق له أن يفتخر على أبناء الشعوب

---

(١) الشمال: جمع شملة وهي الكساء يتشح به. وفي حديث علي قال للأشعث ابن قيس: «إن أبا هذا كان ينسج الشمال باليمين».

(٢) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٦٦ ـ ١٦٧ والديوان ص ١٢٢.

المتحضرة الراقية، لا لشيء إلا لأن أبناء هذه الشعوب قد أخذوا عبيداً من قبل المسلمين لأنهم رفضوا دخول الإسلام.

ولم يكن الأعرابي وحده هو الذي أغضب بشاراً ونال جزاءه منه، بل هناك آخرون تجرأوا عليه فنالوا الأذى من سليط لسانه، فقد ذكر أن رجلاً من بني زيد شريف قال لبشار: قد أفسدت علينا موالينا، تدعوهم إلى الانتفاء منا، وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء، وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل؛ فقال له بشار: والله لأصلي أكرم من الذهب، ولفرعي أزكى من عمل الأبرار، وما في الأرض كلب يدل أن نسبَكَ له بنسبه، ولو شئت أن أجعل جواب كلامك كلاماً لَفعلت[1].

وقد تعجب أحياناً من كلام بشار حين يجعل نسبه في الإسلام مترفعاً عن العرب وعن الموالي معاً، وهذا اسمى انتماء يمكن أن ننمي إليه الإنسان المؤمن حقاً، أما أن يصدر عن بشار فهذا أمر مستغرب فلنسمعه ماذا يقول:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم
مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها
أهل الفعال ومن قريش المشعرِ[2]

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ٢٠٣.
(٢) الفَعال بالفتح: اسم للفعل الحسن من الجود والكرم ونحوه.

فـارجـع إلى مـولاك غيـرَ مـدافـع
سـبـحـان مـولاك الأجـل الأكـبـرِ[1]

أرأيت التعصب الأعمى كيف يأخذ بمجامع بشار ضد العرب، فهو مولى ذي الجلال لا مولى العريب، فلو قال ولا مولى العجم لكان قد حرر نفسه من كل رباط واهٍ ضعيف، وجعل رباطـه مع الله تعالى القوي العزيز.

ولكنا قد أعجبنا به، ووقفنا إلى جانبه لأن الإسلام محى كل فاصل بين المسلمين فلا فـرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.

وإذا ما انتقلنا إلى ثقافة بشار بن برد، فإننا سنجده يستقي من عدة ينابيع برزت أشد البروز في ملامح شعره. ومن هذه الينابيع العصر الجاهلي والقرآن، والعصر الأمـوي، وأخيراً ثقافة العصر العباسي المكتسبة من ثقافات العهد القديم.

أما العصر الجاهلي، فقد رأى شوقي ضيف أن بشاراً في مقدماته الشعرية «حافظ على التراث القديم محافظة شديدة، فاتبع سننه الموروثة، سواء من حيث جزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها، أو من حيث المنهج الذي سار عليه القدماء، إذ كانوا يقدمون بين يديه وصف الأطـلال والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليها في الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهدها الطبيعيـة وما يجـري فيها من حيـوان، ثم

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٣٩ والديوان ص ١٢٤.

يخرجون من ذلك إلى المديح بمآثر الأفراد والقبائل ناثرين في أطراف قصيدهم بعض الحكم. وكل ذلك احتذاه بشار في كثير من مدائحه، بل لقد احتذى نفس المعاني والأخيلة، وبلغ من شدة هذا الاحتذاء عنده أن نظم بعض مدائحه على غرار أراجيز رؤبة مكثراً فيها من الغريب الوحشي على نحو ما هو معروف في أرجوزته[١].

(يا طلل الحي بذات الصمد). ونراه يصرح في بعض مدائحه بأنه بناها أعرابية وحشيّة حتى يرضي ممدوحه سلم بن قتيبة الذي كان يتباصر بالغريب»[٢].

وإذا تركنا إطار المديح ومقدماته إلى معانيه التي ساقها في وصف الخلفاء والولاة وجدناه يخلع عليهم نفس الشيم الرفيعة التي طالما خطها الجاهليون على ممدوحيهم من الكرم والمرؤة. والشجاعة والنجدة وإباء الضيم[٣].

ومن محاكاته للجاهليين نجد بشاراً يحاكي امرىء القيس في مخاطبته للطلل حيث يقول:

ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالي

---

(١) العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص ٢٠٩ وانظر الديوان ج٢ ص ٢١٩ والأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٧٤، وأراجيز، في الديوان ج١ ص ١٣٤.

(٢) الأغاني ج٣ ص ١٩٠.

(٣) العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص ٢٠٩.

وحيث يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فيقول بشار:

أبى طلل بالجزع أن يتكلما
ومـاذا عليه لو أجاب متيما
وبالفرع[1] آثار بقين وباللوى[2]
ملاعب لا يعرفن إلا توهما[3]

ونقل عن الخريمي الشاعر أن بشاراً قال: لم أزل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيهه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالي

أُعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت حتى قلت:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهادى كواكبه[4]

---

(١) ذكر ياقوت أن الفرع بالفتح ثم السكون؛ موضع من وراء الفرك. والفرع بالضم والسكون: قرية بين المدينة ومكة (مادة فرع).

(٢) واللوى في الأصل: منقطع الرملة، وهو اسم موضع بعينه. قال ياقوت: «قد أكثر الشعراء، من ذكره وخلطت بين ذلك اللوى والرمل فعز الفصل بينهما (أنظر ياقوت في اسم فرع ولوى).

(٣) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٤٨.

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٦.

فقد أخذ بشار المعنى من امرىء القيس، ووضعه في قالب جديد فأجاد وأحسن.

ومما تشبه فيه بالقدماء ومذاهبهم قوله في مدح عقبة بن سلم:

إنما لذة الجوادِ ابن سلم
في عطاء ومركب للقاء
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو
ف ولكن يلذ طعم العطاء
يسقط الطير حيث ينتشر الحـ
ـب وتغشى منازل الكرماء
لا أبالي صفح اللئيم ولا تجـ
ـري دموعي على الحروف الصفاء
فعلى عقبة السلام مقيماً
وإذا سار تحت ظلٍّ اللواء[1]

فما أكثر ما يلتقي بشار في معانيه هنا بالمعاني التي كان يأتي بها النابغة عند مدحه لأبي قابوس، وإن كان المؤرخون يحاولون أن يوجدوا صلة قوية من حيث التشابه بينه وبين الأعشى.

فقد ذكر أن الأصمعي كان يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه. ويقول: «كان مطبوعاً لا يكلف طبعه شيئاً

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٩.

متعذراً لا كمن يقول البيت ويملكه أياماً، وكان يشبه بشاراً بالأعشى والنابغة الذبياني، ويشبه مروان بزهير والحطيئة ويقول: هو متكلف»[1].

وبشار لا يترك معنى يستحسنه إلا وأدخله في شعره، فلنسمعه وهو يقف مخاطباً خالد بن برمك قائلاً له:

له نعم في القوم لا يستثيبها
جزاء وكيل التاجر المدَّ بالمُدِّ
أخالد إن الحمد يبقى لأهله
جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكدِ
فاطعم وكل من عارة مستردة
ولا تبقها، إن العواري للرَّدِ

ولنستمع إلى ذلك الأعرابي الذي وقف أمام الإمام علي ليمدحه بعد أن كساه حلة وأنعم عليه بالعطاء:

كسوتني حلة تبلى محاسنها
فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه.
كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به
فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

ألا تلاحظ معي تقارب المعاني وتشابهها، فبشار يلمح

(١) الاغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٤٩.

لخالد بأن المدح بمقدار العطاء (المد بالمد) والأعرابي يقول لعلي كسوتني حلة فسوف أكسوك حلة من الثناء وفي البيت الثاني يرى بشار أن الحمد يبقي لأهله جمالاً لا تبقيها الكنوز، بينما الأعرابي كان أدق تعبيراً، وأكثر إجادة حين قرن الثناء بالغيث، فكما أن الثناء يحيي ذكر صاحبه بالقول الطيب، كذلك الغيث يحيي الأرض بعد موتها فتخصب وتثمر.

وكان بشار يعتد بنفسه عندما يتحدث الناس عن شعره، ويفاخر بثروته اللغوية والبلاغية.

ذكر أحمد بن المبارك عن أبيه قال:

قلت لبشار: ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشُك فيه، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه؛ قال: ومن أين يأتيني الخطأ؟ ولدت ها هنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأيفعت فأبديت[٢] إلى أن أدركت، فمن أين يأتني الخطأ[٣].

ولنستمع إلى هذا الخبر الذي يدل على واسع معرفة بكلام العرب؛ فقد قال أبو حاتم:

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩٢.

(٢) يفع الغلام وأيفع إذا راهق البلوغ فهو يافع، وأبديت (بالبناء للمفعول) أخرجت إلى البادية.

(٣) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٥٠.

كان بشار كثير الولوع بديسم العنزي وكان صديقاً له وهو مع ذلك يكثر هجاءه، وكان ديسم لا يزال يحفظ شيئاً من شعر حماد وأبي هاشم الباهلي في بشار؛ فبلغه ذلك فقال فيه:

أدَيسَمَ يا بن الذّئب من نحل ذارع
أتروي هجائي سادراً غير مُقصر[1]

قال أبو حاتم: فأنشدت أبا زيد هذا البيت وسألته ما يقول فيه، فقال: لمن هذا الشعر؟ فقلت: لبشار [يقوله] في ديسم العنزي؛ فقال: قاتله الله ما أعلمه بكلام العرب! ثم قال: الديسم: ولد الذئب من الكلبة، ويقال للكلاب أولاد ذارع[2].

وذكر الأصمعي فقال:

كنت أشهد خلف بن أبي عمرو بن العلاء وخلفاً الأحمر يأتيان بشاراً ويسلمان عليه بغاية التعظيم ثم يقولان: يا أبا معاذ، ما أحدثت؟ فيخبرهما وينشدهما ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الظهر ثم ينصرفان عنه. فأتياه يوماً فقالا له: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة؛ قال: هي التي بلغتكما، قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب؛ فقال: نعم، بلغني أن سلماً يتباصر[3] بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه؛ قالا: فأنشدناها، فأنشدهما:

(١) السادر: الذي لا يهتم بشيء ولا يبالي ما صنع.
(٢) الأغاني ج٣ ص ١٥٢.
(٣) يتباصر بالغريب: يظهر أنه بصير به.

بكر صاحبي قبل الهجير
إن ذاك النجاح في التبكير

حتى فرغ منها؛ فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان: (إن ذاك النجاح).

بكرا فالنجاح في التبكير

كان أحسن؛ فقال بشار: بنيتها اعرابية وحشية. فقلت: إن ذاك النجاح كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: «بكرا فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين.

ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة، فقام خلف فقبل بين عينيه[1].

ومما يدل على قدرة بشار اللغوية قوله في وصف السفينة:

تلاعب تيار البحور وربما
رأيت نفوس القوم من جريها تجري

قال: وكان قال: «نينان البحور» فعابه بذلك سيبويه فجعله «تيار البحور».

وكان قد جمع نون على نينان أثبته صاحب القاموس وصاحب اللسان واستشهد له بحديث علي رضي الله عنه: «يعلم اختلاف النينان في البحار الغامرات»، وحكى السيد

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٩٠

المرتضى في شرح القاموس تخطئة سيبويه لبشار، ثم قال: واستعمله المتنبي وغلطوه أيضاً[1].

والمنبع الثاني الذي استقى منه بشار ثقافته هو القرآن الكريم، فقوله مخاطباً خالداً البرمكي:

فاطعم وكل من عارة مستردة
ولا تبقها، إن العواري للرد

أخذ المعنى من قوله تعالى: ﴿فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر﴾[2].

وقال بشار يمدح عمرو بن العلاء وكان جواداً شجاعاً ويصف المطايا:

فإذا وردن بنا وردن مخفة
وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

فقد أخذ بشار المعنى من قوله تعالى يصف الطير وهي ذاهبة لنيل رزقها: «تغدوا خماصاً وتروح بطاناً».

ولنسمعه يقول في هجاء العباس بن محمد الذي مدحه ولم يعطه شيئاً:

إن الكريم يخفي عنك عسرته
حتى تراه غنياً وهو مجهول[3]

---

(1) الاغاني هامش ص ٢٤٢ ج٣.
(2) سورة الحج، آية: ٣٦، والمعتر: الرجل الغليظ الكثير اللحم.
(3) الأغاني ص ١٩٥.

فقد أخذ المعنى من قوله تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنيـاء من التعفف تعـرفهم بسيمهـم لا يسئلون النـاس إلحافاً﴾[1].

المنبع الثالث الذي استقى منه بشار ثقافته هو الفلسفات القديمة كاليونانية والهندية والفارسية.

فقل علمنا من قبـل أن مسجد البصـرة كان من أهم المراكز العلمية في العصر الأموي وفي هذا المسجد نشأت مدرسة المتكلمين بزعامة الحسن البصري، ثم المعتزلة بزعامة واصل بن عطاء. وفي المسجد الجامع راح الشباب يقبلون بشغف على تعلم علم الكلام، ومعرفة أسراره. وكان بشار ممن جاء إلى المسجد ونهل منه بشغف علم الكلام؛ فقد اختلف إلى حلقـات المتكلمين ومجـالسهم، فلمـا خـطب واصل بن عطاء. رأس المعتـزلة بين يـدي الوالي الأمـوي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز مع بعض الخطباء البلغاء، أشاد به بشار وببيانه طويلاً[2].

وفي الأغاني أن بشاراً كان يحضر مجالس واصل بن عطاء، ويستمع إلى محاوراته مع من يعتنقون مذاهب الثنوية المجوسية والدهرية الهندية[3] مما يدل على أنه قد تسرب إليه

---

(1) سورة البقرة، آية: ٢٧٢.
(2) البيان والتبيين للجاحظ ج١ ص ١٢٤.
(3) الأغاني ج٣ ص ١٤٦.

من هذه المجالس، وما يماثلها من مجالس المتكلمين شيء من الفلسفة والمنطق.

فبشار يستخدم القياس كما استخدمه إبليس من قبل حين رفض أن يسجد لآدم لأنه مخلوق من طين، وإبليس مخلوق من نار، وبما أن النار أطهر من الطين، فمعنى هذا أن إبليس أفضل من آدم، وقد أيد بشار رأي إبليس وقال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة
والنار معبودة مذ كانت النار

فبشار يقيس بين الأرض والنار؛ فإذا بالأرض كتلة مظلمة، وإذا بالنار كتلة متوهجة، ثم إن النار معبودة منذ أن خلقت، بينما لا نعلم أن الأرض قد عبدت، ومعنى هذا أن النار أفضل من الأرض.

ثم لنلاحظ التناقض كيف يسوقه بشار في شعره على طريقة السفسطائيين عندما يتغزل:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم
ونفى عني الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودي لنا
خرجت بالصمت من لا ونعم
إن في بردي جسماً ناحلاً
لو توكأت عليه لا تهدم[1]

---

(١) المصدر السابق ص ١٥١.

هل لاحظت معي السلب والإيجاب، أو الشيء وضده، لم يطل ولم أنم ونفى وألم، ولا ونعم، وناحلاً وانهدم.

ولنسمعه كيف يستخدم فكرة الفيض عند الغنوصية وهو يتغزل:

وكأن رجع حديثها
قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها
هاروت ينفث فيه سحرا[1]

ومن الثقافة الفارسية نراه ينسج في بعض شعره على منوال ابن المقفع، فهو يتحدث مثلاً عن الصداقة والصديق مستلهماً ما كتبه فيهما ابن المقفع في كتابه (الأدب الكبير)، كما يستلهم الكلاميين في قوة البرهان والحجة، فإذا هو يقول:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبهْ
فعش واحداً أو صل أخاك فإنه
مقارف ذنب مرة ومجانبه[2]
إذا أنت لم تشرب مراراً كل القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه[3]

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٥.
(٢) مقارف ذنب: مخالطه ومرتكبه، من قارف الخطيئة إذا خالطها.
(٣) الديوان ج١ ص ٣٠٥ والأغاني ج٣ ص ١٩٧.

ونحن في معرض حديثنا عن ثقافة بشار لا ننسى أبداً تأثره بمعاصريه من فحول الشعراء أمثال جرير والفرزدق والأخطل، فهو في مدحه يحاول أن يحاكي هؤلاء في مدحهم؛ فقد لاحظ هؤلاء وكانوا سباقين إلى ذلك الفرق الحادث بين من يمدحونهم من الخلفاء والولاة، وبين سادة القبائل في الجاهلية فأسبغوا عليهم كثيراً من الصفات الدينية والزمنية، فنرى بشاراً يقتدي بهم وخاصة في مديحه للمهدي الخليفة العباسي[1].

هذه الثقافات التي اكتسبها بشار بن برد جعلته علماً ظاهراً في معرفة صياغة الشعر، وهتك أسراره، ومعرفة السمين منه من الغث، وما نقده لشعر الكميت إلا خير مثال لتلك القدرة عند بشار.

فقد سئل رأيه في شعر الكميت فقال بشار: ما كان الكميت شاعراً؛ فقيل له: وكيف وهو الذي يقول!:

انصف امرىء من نصف حي يسبني
لعمري لقد لاقيت خطباً من الخطب
هنيئاً لكلب أن كلباً يسبني
وأني لم أردد جواباً على كلب

فقال بشار: لا بل شانئك، أترى رجلاً لو ضرط ثلاثين سنة لم يستحل من ضرطه ضرطة واحدة[2].

---

(١) أنظر الديوان ج٣ ص ٣٢١ وج٢ ص ٢٧٧ وما بعدها.

(٢) لا بل: لا برأ. ويجوز بل بالناء للمفعول أيضاً بمعنى لا سقى ولا مطر الأغاني ج٣ ص ٢٢٥.

وفاة بشار بن برد:

قال الطبري في تاريخه إن سبب قتل المهدي بشاراً، أن المهدي أولى صالحاً أخا يعقوب بن داود وزير المهدي ولاية، فهجاه بشار بقوله ليعقوب:

هم حملوا فوق المنابر صالحاً
أخاك فضجت من أخيك المنابر

فبلغ يعقوب فجاء فدخل على المهدي فقال له: إن بشاراً هجاك قال: ويحك ماذا قال: قال: يعفيني أمير المؤمنين من إنشاد ذلك. فقال: لا بد فأنشده.

خليفة يزني بعمّاته
يلعب بالبوق والصولجانْ
أبدلنا الله به غيره
ودس موسى في حِر الخيزرانْ

ثم ذكر كلمة فظيعة في آخر هذا البيت أكره ذكرها غير أني أذكر حرفا (حر) فأهجاها وهما (ح ر) وبعدهما لفظ الخيزران، وهي امرأة المهدي وإليها ينسب دار الخيزران بمكة فطلبه المهدي، فخاف يعقوب أن يدخل عليه فيمدحه فيعفو عنه، فوجه إليه من تلقاه في البطيحة وقتله والله أعلم[1].

وأما أبو الفرج فقد ذكر في أغانيه أن بشاراً مدح يعقوب بن داود وزير المهدي لكن هذا لم يعطف على بشار

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص ١٦٩ طبعة أولى ومرآة الجنان ج١ ص ٣٥٥.

وحرمه من العطايا الكثيرة التي وصل بها الشعراء، فانصرف بشار إلى البصرة مغضباً. فلما قدم المهدي البصرة أعطى هو الآخر الشعراء ولم يعط بشاراً شيئاً فجاء بشار إلى حلقة يونس النحوي فقال: هل ها هنا أحد يحتشم؟ قالوا له: لا؛ فأنشأ بيتاً يهجو فيه المهدي، فسعى به أهل الحلقة إلى يعقوب؛ فقال يعقوب للمهدي: إن بشاراً هجا أمير المؤمنين، فأمر ابن نهيك بأخذه في زورق، فلما كانوا بالبطيحة ضربه ابن نهيك حتى التلف فمات وألقي في البطيحة. وكانت وفاته سنة ثمان وستين ومائة وقد بلغ نيفاً وسبعين سنة[٢] ولما مات بشار أخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح تصيح: واسيداه! واسيداه. أما أهل البصرة فقد راحوا يهنؤن بعضهم بعضاً، وحمدوا الله وتصدقوا لما كانوا قد بلوا به من لسانه[١].

وهكذا طويت الصفحة الأخيرة من حياة بشار بعد أن شغل الناس. وأهابهم لا بقوته الجسدية ولكن بقوة لسانه، وقوة اللسان هي سلاح الضعفاء يدافعون به عن أنفسهم.

---

(١) الأغاني ج٣ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩ ووفيات الأعيان لابن خلكان ج٣ ط ص ٤٢ ـ ٤٧ ومرآة الجنان لليافعي ج١ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٥ وفيها ذكر أن بشاراً قتل سنة سبع وستين ومائة.

الفصل الثاني
مذهب بشار وانتماؤه العقائدي

قبل التعرف على مـذهب بشار وانتمـائه العقـائدي، يتوجب علينا أن نلقي نظرة عابرة على حالة المجتمع العباسي الذي عاش فيه بشار الشطر الأكبر من حياته، والذي كان له أعمق الأثر في حياته وسلوكه.

لقد عرف المجتمع العباسي عدة ظواهر كان لها أكبر التأثير في أن تجعله عصراً مميزاً عن غيره من سائر العصور.

أول هذه الظواهر سيطرة العنصر الفارسي على العنصر العربي، وبالتالي سيطرة المجتمع الفارسي بكثير من مظاهره على المجتمع العربي، وفرض لون حياته على حياة العباسيين الاجتماعية، وإذا عرفنا أن المجتمع الفارسي كان في نهايته يمتاز باللهو والبذخ والترف والرخاء، فكان لا بد له من أن يحمل معه هذه الحالات الاجتماعية إلى المجتمع العربي العباسي. من هنا نجد انتقال الحياة العربية من طور البساطة إلى طور التعقيد، ومن العيش الوديع المتواضع إلى الترف، وبذلك طبع العصر العباسي بالطابع الفارسي.

وليس عجيباً بعد هذا أن تزدهر بغداد المنصور التي بناها

على طراز المدائن حاضرة الفرس، وأن تزخر بمعالم الحضارة المادية، فترتفع فيها القصور المزخرفة والفاخرة الرياش، وأن تتألف فيها ليالي السمر والمنادمة، وأن تغص بالغلمان والجواري الحسان. وأن يكثر البذل والعطاء، ويرتفع مستوى الحياة، ويسرف الناس في تتبع لذائذ الحياة.

لقد كانت الحياة بكل ترفها وأبهتها متركزة في بغداد وضواحيها، واستقبلت هذه المدينة كل مفاخر العصر، فأصبحت مضرب المثل بعظمتها، وجمالها ورجالها، وكان خلفاؤها طليعة التنور العقلي، والتحرر، تميز حكمهم على الإجمال بالتسامح والبعد عن التزمت والتضييق.

الظاهرة الثانية التي عرفها العصر العباسي هي ظاهرة نقل التراث الفكري من العالم القديم إلى العالم العربي الإسلامي.

إن العرب القدماء كان هدفهم الأسمى بناء الأمة العربية على أسس علمية سليمة، منذ أن فكروا بنقل التراث اليوناني والفارسي والهندي في الأعصر العباسية، وقبلها، رغم أنهم لم يفصحوا عن الأسباب التي دعتهم إلى ترجمة هذا التراث الفكري، وكلفهم الشديد نحو هذه الحركة العلمية. لذا لم يشهد العالم الإسلامي والمجتمع العربي منذ نشأته حركة أقوى وأعظم من حركة الترجمة في الأعصر العباسية رغم طابع الاجتهاد والفردية اللذين كانا يسيطران على هذه الحركة، والانكباب على هذا التراث القديم ونقله في حالة تشبه النهم

الذي لا يروى، لأنهم أدركوا ما لكل أمة من الأمم السابقة من تراث ثقافي يمتاز عن غيره. وسنة الحياة هي التواجد بين الأمم وهي سنة أخذ وعطاء، فالأمم حيال بعضها البعض تأخذ حيناً وتعطي طوراً آخر، ولما كان الجسر موجوداً والعلماء يشدون الركاب لخوض غمار الحركة، فكانت الترجمة هي النقطة الجوهرية في التفاهم والتعاون الثقافي الدولي، والتقارب الأممي الذي تحمله ذلك الجسر الحضاري من السريان والنساطرة والكلدان والصابئة في تلك الحقبة بالذات.

وذكر صاحب كشف الظنون قائلاً:

واعلم أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأمويين، ولما ظهر آل العباس كان أول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، وكان مع براعته في الفقه مقدماً في علم الفلسفة وخاصة في النجوم محباً لأهلها.

ثم لما أفضت الخلافة إلى الخليفة عبد الله المأمون بن الرشيد تم ما بدأ به جده، فطلب من ملوك الروم وصله ما لديهم من كتب فبعثوا إليه منها بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو وسقراط وجالينوس وغيرهم، وأحضر له مهرة المترجمين فترجموا له(١).

ومن أهم ما اكتسبه العرب من الفكر اليوناني منطق أرسطو وفلسفة أفلاطون في نظرية الفيض الإلهي، ثم علم الكلام والجدل والسفسطة إلى غير ذلك من المعارف.

---

(١) كشف الظنون ج١ ص ٣٤.

ومن الفرس أخذ العرب علمهم وأدبهم، وكانت لهم كتب في التنجيم والهندسة والجغرافية. فلما نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي، أخذت طائفة ممن يجيدون اللسانين ـ الفارسي والعربي ـ ينقلون الكتب من الفارسية إلى العربية.

أما تأثير الثقافة الهندية في الثقافة الإسلامية فيأتي من ناحيتين: ناحية مباشرة ـ وذلك باتصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التجارة، ومن طريق الفتح العربي، وناحية غير مباشرة ـ وذلك بنقل ثقافتهم بواسطة الفرس؛ فإن الفرس اتصلوا بالهنود اتصالاً وثيقاً قبل الفتح الإسلامي، وأثروا فيهم وتأثروا بهم. فلما نقلت الثقافة الفارسية إلى العربية، كان معنى هذا نقل جزء من الثقافة الهندية في ثناياها.

كان تأثيره في الثقافة الإسلامية من نواح: أهمها الإلهيات، المقالات الدينية، والنجوم، والآداب وما يتبعه من فن الخ.

ففي الإلهيات كان أثر التناسخ في بعض الفرق الدينية الإسلامية كبيراً. فقد قالت بعض هذه الفرق إن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت. ومن الفرق التي قالت بهذا القول السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ.

كما أن الحركة الدينية كانت قد بلغت في آخر الدولة الأموية شأواً بعيداً ـ فقد جرهم البحث إلى أن يتكلموا في

القضاء والقدر ونحوه، وتجادل المسلمون مع سائر الأديان. فأحس المسلمون أن لا بد من مجاراتهم بآلاتهم فعكفوا على المنطق والفلسفة يستخدمونها في أغراضهم، وفيما هم كذلك شعروا بلذة عقلية من دراسة الفلسفة، وبعد أن كانت تطلب على أنها وسيلة للدفاع عن الدين، أصبحت غاية في نفسها تطلب لذاتها.

في هذه الأجواء نشأ بشار بن برد، فكان لا بد له من أن يتأثر بها شأنه شأن سائر الشعراء من أبناء عصره يضاف إلى ذلك ما حمله عن قومه من عادات وتقاليد وطقوس دينية كانت سائدة في المجتمع الفارسي قبل دخول الإسلام إليه. كالزردشتية والمانوية والمزدكية وغيرها.

ونحن عندما نريد أن ندرس شخصية بشار المذهبية فعلينا قبل أن نبدي برأينا فيه أن نذكر آراء النقاد والدارسين ممن عاصروه أو جاءوا بعده على اختلاف آرائهم وتناقضاتهم.

لكي نتعرف على شخصية بشار بن برد وما أثير حولها من اتهامات تتعلق بقضية موقفه من الدين، فلا بد لنا من أن نستعرض آراء النقاد والدارسين حول هذا الموضوع قبل أن يحق لنا أن يكون لنا رأي في هذا الموضوع أيضاً.

فمن الذين تناولوا قضية تدين بشار أو استهتاره بالدين، نجد الجاحظ فقد ذكر في كتابه البيان والتبيين أن بشاراً كان شاعراً خطيباً صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل، وأنه كان

يدين بالرجعة[1]، ويكفر جميع الأمة، ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وذكر ذلك في شعره فقال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة
والنار معبودة مذ كانت النارُ

قال: وبلغه عن أبي حذيفة واصل بن عطاء إنكار لقوله بالرجعة وتكفير جميع الأمة وتبرأه منه، فهتف به. وقال يهجوه:

ما لي أشايع غزالاً له عنق
كنقنق الدَّوِّ إن ولى وإن مثلا[2]
عنق الزرافة ما بالي وبالكم
تكفرون رجالاً أكفروا رجلا

فقد عاب بشار واصل بطول عنقه النقنق بنونين وقافين ذكر النعام شبهنه به لطول عنقه[3] قال: فلما تتابع على واصل منه ما يشهد على الحاده خطب به واصل، وكان الثغ على الراء فكان يتجنبها في كلامه، فقال: أما لهذا الأعمى الملحد، أما

---

(1) الرجعة: الإيمان بالرجوع بعد الموت إلى الدنيا وهو مذهب قوم من العرب في الجاهلية، ومذهب طائفة مر أولى البدع والأهواء من المسلمين يقولون إن الميت يرجع إلى الدنيا ويكون فيها حياً (أنظر شرح القاموس للسيد مرتضى واللسان في مادة رجع).

(2) عرف واصل بن عطاء بالغزال لكثرة جلوسه في سوق الغزالين إلى أبي عبد الله مولى قطن الهلالي (البيان والتبيين ج١ ص٢٠).
والنقنق: الظليم وهو ذكر النعام، والدو: الفلاة.

(3) طبقات المعتزلة لأحمد بن يحيى المرتضى تحقيق سوسنة ديفد فلزر بيروت المطبعة الكاثوليكية ص ٣٠.

لهذا المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله؛ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه في جوف منزله أو في حفله، ثم كان لا يتولى ذلك إلا عقيلي أو سدوسي! فقال أبا معاذ ولم يقل بشاراً، وقال المشنف ولم يقل المرعث، وقال: من سجايا الغالية ولم يقل الرافضة، وقال: في منزله ولم يقل في داره، وقال: يبعج بطنه ولم يقل يبقر، للثغة كانت به في الراء[1].

ولم يكتف واصل بن عطاء في وصف بشار بالملحد، بل يطلق عليه أيضاً بعد أن سمع غزله الصريح الفاحش بالملحد الأعمى حين قال: إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد[2].

وحول قضية تفضيل بشار النار على الطين يروي المازني خبراً عن رجل قال لبشار: أتأكل اللحم وهو مباين لديانتك؛ يذهب إلى أنه ثنوي[3] ـ فقال بشار: إن هذا اللحم يدفع عني شر هذه الظلمة:

وأما المبرد فقال عن بشار: يروى أن بشاراً كان يتعصب للنار على الأرض، ويصوب رأي إبليس في الامتناع عن السجود، وروي له:

---

(١) انظر الأغاني ج٣ ص ١٤٦.

(٢) الأغاني ج٣ ص ١٨٣.

(٣) الثنوية: فرقة من الكفرة تزعم بثنينية الإله: إله للخير وهو النور وإله للشر وهو الظلمة.

النـــار مـــشـــرقـــة والأرض مـــظلمـــة
والنـــار معبـــودة مـــذ كـــانـت النـــار[1]

وحول قضية إيمان بشار بالرجعة وتفضيله النار على الطين يقول ابن خلكان:

كان بشار يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمم، ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وقد ذكر ذلك في شعره حين قال:

النـــار مـــشـــرقـــة والأرض مـــظلمـــة
والنـــار معبـــودة مـــذ كـــانـت النـــار[2]

وأما ابن قتيبة فيتهم بشاراً: بأنه كان يرمى بالزندقة وهو مع ذلك يقول:

كـيـف يـبـكـي لـمـحـبس فـي طـلـول

---

(١) وفيات الأعيان ج٣ طبعة أخيرة ص ٢٦.

(٢) الشر والشوار ج٢ ص ٧٥٧ وفي نكت الهميان للصفدي ص ١٢٧ والتبصير في الدين للإسفرايني ص ٣٨ والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٥٤ أن بشاراً كان من الفرقة الكاملية وهم أتباع أبي كامل يقول: أن الصحابة كلهم كفروا بتركهم بيعة علي، وكفر علي أيضاً بتركه قتالهم؛ إذ كان واجباً عليه أن يقاتلهم كما قاتل أهل صفين والجمل ومما قاله بشار فيّ تصويب رأي إبليس في رفضه السجود لآدم:

إبـليس خـيـر مـن أبـيـكـم آدم
فـتـنـبـهـوا يـا مـعـشـر الـفـجـار
إبـليس مـن نـار وادم طـيـنـة
والأرض لا تـسـمـو سـمـو الـنـار

فالاتهامات الموجهة لبشار هنا تتعلق بالجانب العقائدي، أو الانتماء الديني. لكن هناك اتهامات أخرى موجهة لبشار حول ضعف الممارسات الدينية عنده.

فقد روى أبو عبيد الله المرزباني في السند عن أحمد بن خلال قال:

حدثني أبي قال: كنت أكلم بشاراً، وأرد عليه سوء مذهبه بميله إلى الإلحاد، فكان يقول: لا أعرف إلا ما عاينت أو عاينه معاين. وكان الكلام يطول بيننا، فقال لي لا أظن الأمر يا أبا مخلد إلا كما يقال: إنه خذلان؛ ولذلك أقول:

طبعت على ما في غير مخير
هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطي ولم أرد
وغيب عني أن أنال المغيبا
واصرف عن قصدي وعلمي مبصر
فأمسي وما أعقبت إلا التعجبا[1]

فقضية إيمان بشار بالقضاء والقدر واضح في أبياته هذه، ولكن ليس على الطريقة الإسلامية التي ترى أن الإنسان في بعض الوجوه مجبر لا مخير في صنع أفعاله، بل هو موجود على هذه الأرض أو في هذه الدنيا رغماً عنه، وأنه يعطى ما لا يريد، ويحرم مما يريده كما أنه حائر في أمره، فهو يتساءل عن كثير

(١) امالي المرتضى ج١ ص ١٣٨.

من الأمور المحيطة به، فلا يجد جواباً، وأن كل ما يعرفه هو ما عاينه في الأمس القريب، أما ما عدا ذلك فلا يثير عنده إلا التعجب. فقضية التشكيك بالدين، أو الممارسة الدينية ماثلة في ثنايا كلامه بوضوح لا يحتاج إلى تفسير.

وإذا كان بشار مشككاً بما يحيط به أو يسمعه فكيف يطلب منه أن يقوم بالطقوس الدينية في أوقاتها، وأن يتعجب المرء من عدم فعله ذلك؟

فقد روى بعض الصحابة فقال: كنا إذا حضرت الصلاة نقوم إليها، ويقعد بشار، فنجعل حول ثيابه تراباً؛ لننظر: هل يصلي، فنعود والتراب بحاله ولم يقم إلى الصلاة[1].

ولم تكن قضية الصلاة هي وحدها المتروكة من قبل بشار، أو المسخر منها. بل نجد أيضاً قضية هامة أخرى لا يكتمل دين المسلم إلا بها وهي قضية الحج إلى بيت الله الحرام.

عن إسماعيل بن زياد الطائي قال:

كان رجل منا يقال له سعد بن القعقاع يتندم بشاراً في المجانة، فقال بشار وهو ينادمه: ويحك يا أبا معاذ! قد نسبنا الناس إلى الزندقة، فهل لك أن تحج بنا حجة تنفي ذلك عنا؟ قال: نِعْمَ ما رأيت! فاشتريا بعيراً ومحملاً وركباً، فلما مرا بزرارة[2] فقال له: ويحك يا أبا معاذ! ثلاثمائة فرسخ متى

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٩ والأغاني ج٣ ص ١٨٦.

(٢) زرارة (بضم أوله): محلة بالكوفة.

نقطعها! مل بنا إلى زُرارة نتنعم فيها، فإذا قفل الحاج عارضناهم بالقادسية وجززنا رءوسنا فلم يشك الناس أنا جئنا من الحج؟ فقال له بشار: نعم ما رأيت لولا خبث لسانك، وإني أخاف أن تفضحنا. قال: لا تخف. فمالا إلى زرارة فما زالا يشربان الخمر ويفسقان، فلما نزل الحاج بالقادسية راجعين، أخذا بعيراً ومحملاً وجزا رءوسهما وأقبلا وتلقاهما الناس يهنئونهما؛ فقال سعد بن القعقاع:

ألم ترني وبشاراً حججنا
وكان الحج من خير التجارهْ
خرجنا طالبي سفر بعيد
فمال بنا الطريق إلى زرارهْ
فآب الناس قد حجوا وبروا
وأبنا موقرين من الخساره[1]

فسعد بن القعقاع، وبشار بن برد حجا إلى زرارة بدل مكة، فمكة فيها باعتراف ابن القعقاع الحج والبر، وزرارة فيها الخمر والفسق، وتلك فيها التعب الجسدي، والخسارة المادية، وهذه فيها الراحة وتوفير المال. والمهم في الأمر هو خداع الناس وتوهمهم بأن بشاراً وابن القعقاع قد حجا وتابا إلى ربهما فيرضوا عنهما، أما رضى الله فهذا أمر لا يفكران به، لأنهما إن خدعا الناس فهما لا يستطيعان خداع الله تعالى.

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

قضيتان لا بد من أن نشير إليهما هنا هما معرفة الناس باستهتار هذين الشاعرين بالدين ومن على شاكلتهما، ثم قضية التأثير المعنوي الذي تمارسه العامة على مثل هؤلاء فيُحسب لهم حساب كبير، ويخاف جانبهم.

ولنستمع إليه ماذا سيقول عندما سمع جارية تغني لبعض التجار بالكرخ في قوله:

إن الخليفة قد أبى
وإذا أبى شيئاً أبيتهْ
ومخضّب رَخْص البنا
ن بكى علي وما بكيتهْ[1]
يا منظراً حسناً رأيـ
ـت بوجه جارية فديتهْ
بعثت إلي تسومني
ثوب الشباب وقد طويته

طرب بشار وقال: هذا والله أحسن من سورة الحشر. ورواها آخرون: هي والله أحسن من سورة الحشر[2].

لقد حمل الغرور بشاراً أن جعل كلامه ككلام الخالق، بل هو أحسن منه، ولم يختر من كلام الله تعالى إلا سورة الحشر، والسبب في هذا الاختيار لا يخفى على من أوتي الحكمة

---

(١) الخضب:

(٢) الأغاني ج٣ ص ٢١١.

والعقل السديد، فسورة الحشر معناها في عنوانها فهي تذكر بشاراً ومن هم من أمثاله بأن هناك موت، ونشور يحشر فيه الناس ليحاسبوا على ما فعلته أيديهم، وأيدي بشار مليئة بالآثام التي تشكل له مصدر قلق وخوف، لهذا فهو ينزعج من كلمة الحشر.

ومن يتجرأ على الخالق، يهون عليه أن يتجرأ على مطلق إنسان، ولهذا ليس عجيباً أن نراه يقذف بكلامه الفاحش المحصنات من النساء، ويدعي أنه لا عصمة عند المرأة مهما كانت حرة، فبالمسايرة والتكرار في الملاحقة تصبح المرأة العسيرة امرأة ميسرة وفي هذا المعنى يقول متغزلاً:

قاسِ الهموم تنل بها نجحاً
والليل إن وراءه صبحاً
لا يؤيسنك من مخبأة
قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة
والصعب يمكن بعد ما جمحا

إنها دعوة صريحة من بشار للتمرد على كل القيم الأخلاقية وما ذلك إلا لأن بشاراً قد فقد الحس الديني الذي يكبت العواطف الشهوانية، ويحد من جموحها، ولهذا لا نعجب من المهدي أن يثور على بشار لسماعه هذه الأبيات وأن يقول له: تلك أمك يا عاض كذا من أمه! أتحض الناس على

الفجور وتقذف المحصنات المخبآت! والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في نسيب لآتين على روحك[١].

وهذه الأبيات وأمثالها شاعت بين الناس، وأصبحت سلاحاًماضياً يتسلح به كل شاب مستهتر ساع وراء الإفك أمثال بشار. وما قصة ذلك الغلام الذي كافأه بمائتي دينار إلا خير مثال على ما نقول: فقد ذكر أحد الشعراء أنه أتى بشاراً الأعمى وبين يديه مائتا دينار، فقال له: خذ منها ما شئت، أو تدري ما سببها؟ قلت: لا؛ قال: جاءني فتىً فقال لي: أنت بشار؟ فقلت: نعم. فقال: إني آليت أن أدفع إليك مائتي دينار وذلك أني عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلي، فهممت أن أتركها فذكرت قولك:

لا يؤيسنك من مخبأة
قول تُغَلِّظُهُ وإن جَرَحا
عُسرُ النساء إلى مياسرة
والصعب يمكن بعد ما جمحا

فعدت إليها فلازمتها حتى بلغت منها حاجتي[٢].

لقد نال الفتى ما أراد من فتك بوصية من بشار، ولولا بشار ووصيته لما حصل على ما يريد.

ومن الأخبار التي تحدثت عن استهتار بشار بالذين

(١) الأغاني ج٣ ص ٢٤١.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٩.

وطقوسه ما روي عن آذانه وهو سكران فقد نقل إلى المهدي أن بشارا قد هجاه بأبيات فيها إساءة إليه كخليفة للمسلمين فأراد المهدي أن يتحقق من الأمر «فعمد على الانحدار إلى البصرة للنظر في أمرها، وما وكده[1] غير بشار، فانحدر فلما بلغ إلى البطيحة[2] سمع آذاناً في وقت ضحى النهار، فقال: انظروا ما هذا الآذان؛ فإذا بشار يؤذن سكرانا؛ فقال له: يا زنديق يا عاض بظر أمه، عجبت أن يكون هذا غيرك، أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت سكران! ثم دعا بابن نهيك فأمره بضربه بالسوط فضربه بين يديه على صور الحراقة[3] سبعين سوطاً أتلفه فيها، فكان إذا أوجعه السوط يقول: حس ـ وهي كلمة تقولها العرب للشيء إذا أوجع ـ فقال له بعضهم: انظر إلى زندقته يا أمير المؤمنين، يقول: حس. ولا يقول: باسم الله؟ فقال: ويلك! أطعام هو فأسمي عليه! فقال له الآخر: أفلا قلت: الحمد لله؛ قال أو نعمة هي حتى أحمد الله عليها»[4].

إن قضية آذان بشار في غير وقت الصلاة وهو سكران لم يكن بالأمر الأهم من غيره من أفعال بشار حتى يكون قصاصه الضرب حتى التلف، لكن القضية الجوهرية والأساسية هي أن

---

(١) وكده: قصده.

(٢) البطيحة: أرض واسعة بين واسط والبصرة.

(٣) الحراقة: واحدة الحراقات وهي سفن بالبصرة فيها مرامي نيران يرمى بها العدو.

(٤) الأغاني ج٣ ص ٢٤٤.

شخصية بشار لم يعد مرغوب في وجودها في الدتيا، وبات من الواجب إزالتها، لماذا لأن قلوب الناس كانت قد امتلأت حقداً عليه، وكرهاً له. وهم ينتظرون الفرصة المناسبة لقتله حتى جاءتهم فرصة وجوده يؤذن وهو سكران، فكان قتله على يد الخليفة المهدي، وإلا ما هي أهمية قول بشار حس وهو يضرب يعبر عن ألمه حتى يتمسك بها من كرهوا بشاراً، فينبري بعضهم يشكك بإيمان بشار لأنه لم يقل باسم الله وكان مع بشار الحق، في اعتراضه على قول أولئك المشككين، فباسم الله لا تقال إلا عند المباشرة بفعل أي شيء فيه فائدة للإنسان، كالطعام أو الشراب، أو الحركة أو غير ذلك، أما أنه يقول: باسم الله على ضربه بالسياط، فهذا أمر عجيب حقاً، وكذلك اعتراضه على قول من أقبح على عدم استخدام بشار لكلمة الحمد لله. المهم أن أي عمل يفعله بشار صار منكراً ومستهجناً، وحتى مستهتراً زنديقاً يستوجب القتل عليه.

ومما أخذ على بشار في استخفافه بالدين ما روي عن صديق لعافية بن شبيب أنه قال لبشار: كنا أمس في عرس فكان أول صوت غنى به المغنِي:

هـوى صـاحبي ريح الشَّمـالِ إذا جـرتْ
وأشـفـى لـنـفـسـي أنْ تَـهُـبَّ جَـنُـوبُ

ومـا ذاك إلا أنـهـا حـيـن تـنـتـهـي
تـنـاهـي وفـيـهـا مـن عُـبَـيـدة طـيـبُ

فطرب وقال: هذا والله أحسن من فُلَج يوم القيامة[1].

ومن قبيل هذا ما روي من أن بشاراً كان في دار المهدي، والناس ينتظرون الإذن. فقال بعض موالي الخليفة لمن حضر: ما عندكم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وأوحى ربُّك إلى النمل أن اتخذي من الجبال بيوتاً، ومن الشجر﴾ فقال له بشار: النمل التي يعرفها الناس. قال: هيهات يا أبا معاذ! النمل بنو هاشم. وقوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ يعني العلْم، فقال له بشار: أراني الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بني هاشم! فقد أوسعتنا غثاثة. فغضب وشتم بشاراً. وبلغ المهدي الخبر فدعا بهما فسألهما عن القصة فحدثه بشار فضحك حتى أمسك على بطنه، ثم قال للرجل: «أجل. فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم، فإنك بارد غث»[3].

وتهتك بشار الديني في استهتاره بالصلاة حين يقول:

وإنني في الصلاة أحضرها
ضحكة أهل الصلاة إن شهدوا
أقعد في سجدة إذا ركعوا
وارفع الرأس إن هُمُ سجدوا

---

(١) الفلج بالضم الفوز والظفر.
(٢) الأغاني ج٣ ص ٢١٥.
(٣) المصدر السابق ص ١٥٨.

أسـجـد والـقـوم راكـعـون مـعـاً
وأسـرع الـوثـب إن هُـمُ قـعـدوا
فـلـسـت أدري إذا إمـامُـهُـم
سـلّم كـم كـان ذلـك الـعـددْ[1]

أرأيت استهتاراً بأهم الواجبات الدينية عند المسلم كهذا الاستهتار. وإنني لا أحسبه في تصرفه هذا إلا كالصبي الصغير الذي راح يقلد والده في أداء الصلاة، وأما أن يكون صاحب مثل هكذا حركات فهو بشار فهذا أمر يثير السخرية والحزن لحال مثل هكذا إنسان أكثر من إثارة الغضب عليه لاستهتاره الديني.

وبشار لا يترك من شره حتى شهر رمضان الذي يمر في كل سنة من عمر المسلمين، فهو يراه شهر القهر لملذاته، وتهتكه ولهذا فهو يتوق لانقضاء هذا الشهر حتى يعود إلى كامل حريته فلنسمعه ماذا يقول في شهر رمضان:

قـل لـشهـر الـصيـام أنـحلت جسـمـي
إن مـيـقـاتـنـا طـلـوع الـهـلال
أجـهـد الان كـل جـهـدك فـيـنـا
سـتـرى مـا يـكـون فـي شـوال[2]

وإذا كان الباحثون قد جاروا في الدين الذي يدين به

---

(١) الديوان ص ٧٥.
(٢) الديوان ص ١٩١.

بشار. وفي المذهب الذي يذهب إليه، فهو في نظرهم تارة يدين بالثانوية، وتارة يقنط للقمر، وأخرى يناصر إبليس على آدم. فهم أيضاً حاروا في مذهبه فهو تارة من الكاملية، وتارة من المرجئة، وأخرى من الدهرية إلى غير ذلك فهذه الشواهد التي ساقها الباحثون ليست في نظر عمر فروخ إلا مجرد تماجن أو إظهار الظرف، أو ترك بعض الفروض المكتوبة من صلاة، أو من صيام، أو ما أوجبه الدين من عادات[1].

وإلا كيف ننظر إلى مثل هذه الأبيات التي قالها بشار متحدثاً عن الموت. وعن يوم الحساب.

كيف يبكي لمحبس في طلول
من سيقضى ليوم حبس طويل
إن في البعث والحساب لشغلاً
عن وقوف برسم دار محيل[2]

وقوله من قصيدة:

من الفاطميين الدعاة إلى الهدى
جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم[3]

وقوله في الطومار الذي وجد في بيته بعد قتله.

---

(١) بشار بن برد لعمر فروخ ص ٥٤.
(٢) وفيات الأعيان ج٣ طبعة أخيرة ص ١٩.
(٣) الأغاني ج٣ ص ١٥٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

إني أردت هجاء آل سليمان بن علي لبخلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله ﷺ فأمسكت عنهم إجلالاً له[1].

إن مثل هذه الأقوال لبشار وغيرها لخير دليل على أن بشاراً كان مقصراً في الدين ولم يكن كافراً به.

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٩.

الفصل الثالث

موضوعات شعره

يدور معظم شعر بشار في ثلاثة أغراض هي: الهجاء ويمكن تقسيمه عند بشار إلى ثلاثة أنواع:

هجاء شخصي وهو موجه إلى من كان يراهم من الثقلاء، أو مَنْ كانوا يحاولون التحقير من شأنه، أو التقليل من قدره. ومن الأسماء التي وجه بشار هجاءه إليها حماد عجرد، ورجل اسمه أبو زيد، وواصل بن عطاء رأس المعتزلة، وأبو هشام الباهلي.

وهذا اللون من الهجاء كان قليلاً لا يتجاوز حدود الجزئية التي أثارها موقف شخصي بين كل من الشاعر، والشخص المهجو، وهذا الشعر يتسم في أغلبه بالفحش، واستخدام أقذع الكلمات، وكان الهدف من هذا الشعر التطاول على المهجوّ، والتشهير به، وتشويه صورته بين الناس.

النوع الثاني من الهجاء عند بشار هو هجاؤه للعرب وذلك تحت تأثير عامل التعصب القومي ضده حين كان يوجه

إليـه الازدراء والاحتقار، وحين كـان يراه النـاس من طبقـة الموالي.

أما النوع الثالث من الهجاء، فهو هجاؤه لأهل السلطة لإحجام هؤلاء عن سد حاجته إلى المال.

الغرض الثاني من شعر بشار هو المدح، وقد غلبت عليه في طابعه العام سمة التكسب من جهة وطابع التهديد بالهجاء إن لم يلب طلبه من جهة ثانية.

أما الغرض الثالث فهو الغزل الذي يبشر فيه بمبـادئه الخاصة التي ترتكز على تحرره الأخلاقي الجنسي، وتبشيره باللذة وإباحيتها، وفي إطلاق الحرية لنفسه فيما يـرى وما يفعل. ولم يقتصر شعر بشار على هذه الأغراض، فقد طرق أغراضا أخرى كالرثاء والفخر والحكمة.

الهجاء

أولاً: الهجاء الشخصي، وهو ما جرى بين بشار وبين الشخص المهجو من موقف.

وأول الشخصيات التي جرى بين بشار وبينها هجاء هو حماد عجرد. وكان حماد من أشد الناس بذاءة في الهجاء، وكان دائم البحث عن أماكن يستطيع فيها إيذاء بشار كاستغلال حماد هذا لمهنة والد بشار الحقيرة وهجو بشار من خلالها. فقد روي أن بدر بن مزاحم قال: كان بردُ أبو بشار طياناً يضرب اللبن، وأراني أبي بيتين لنا فقال لي: لَبِنُ هذين البيتين من ضرب برد أبي بشار. فسمع هذه الحكاية حماد عجرد فهجاه فقال:

يا بن برد اخسأ إليك فمثل الـ
ـكلب في الناس أنت لا الإنسان
بل لعمري لأنت شر من الكلـ
ـب وأولى منه بكل هوانِ
ولريح الخنزير أهو من ريـ
ـحك يا بن الطيان ذي التبانِ(١)

---

(١) التبان: (بالضم وتشديد الباء): سراويل صغيرة يكون للفلاحين (الأغاني ج٣ ص ١٣٧).

وكما تناول حماد عجرد بشاراً في أسرته، تناوله أيضاً في خلقته فسخر منه وشبهه بالقرد الاعمى إلى غير ذلك.

وكان هذا التصرف من حماد يؤذي بشاراً ويبكيه وعندما قال له قائل: أتبكي من هجاء حماد؟ فقال: والله ما أبكي من هجائه، ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه، فيصفني ولا أصفه(١).

وكان بشار يتحاشى هجاء حماد مخافة بذاءته، والرغبة في إهماله، ولما لم يجد من فراره منجىً له عمد إلى هجائه ومما قال فيه:

يا فرخ نُهيا بإفكٍ قُلْتَ أو زُورِ
إذ لا تَزالُ تَعَبا لي بتعبير
قد كنتُ قَصَّرْتُ بُقْيا أو محافظةً
فالأن حين انجلى همي بتقصيري
نبئت أنك يا حمَّادُ تنبحني
والكلب ينبح مربوطا بساجورِ(٢)
أحين هرَّتْ كلاب الحي من حرسي
واحمرَّ من منهج الأجواف تصديري
وذبَّ عني غواة الناس معتديا
باب حديد وصوت غيرُ منزور

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج١٤ ص ٣٢٩ والبيان والتبيين للجاحظ ص ٣٠.
(٢) الساجور: خشبة تعلق في عنق الكلب.

تــفــشــو إلــي بــإشــعــار مــلصَّــقــةٍ
مهــلاً أبــا عُمَــرٍ مــا أنت في الـعيــرِ(١)

ومن قوله في هجاء حماد أيضاً ونسبه إلى أنه ابن نهبى :

ابــن نــهــبــى رأس عــلي ثــقــيــل
واحــتــمــال الــرؤس خــطــب جــليــلُ
ادع غــيــري إلــى عــبــادة الاثــنــ
ـيــن فــإنــي بــواحــد مــشــغــولُ
يــا ابن نهبى بــرئـت منــك إلــى الله
جــهــارا وذاك مــنــي قــليــلْ(٢)

ففي هذه الأبيات إشارة إلى اتهام بشار حماد عجرد بالزندقة لمجونه في شعره، وقوله بالثنوية في عبادة اثنين، وهذا اتهام خطير كان يوجهه كل شاعر أراد الأذية بشاعر آخر.

وأما هجو بشار لواصل بن عطاء فيقول فيه:

مــا لــي أتــابــع غــزالاً لــه عُــنُــقٌ
كنقــنــق الــدَّوِّ إن وَلَّــى وإن مــثــلا(٣)

(١) أحمر من مهج الأجواف: المقصود أنه يطعن أجواف أعدائه فتسيل دماً حين يضربهم (الديوان ج٣ ص ٣٧).
(٢) الأغاني طبعة بولاق ج٤ ص ١٤.
(٣) عرف واصل بالغزال لكثرة جلوسه في سوق الغزالين (البيان والتبيين للجاحظ ج ١ (ص ٢٠) والنقنق: ذكر النعام. والدو: الفلاة.

عنق الزرافة ما بالي وبالكُمُ
تكفرون رجالاً كفّروا رجلا(١)

فبشار ينعت واصل بن عطاء بالسذاجة والحمق، ويصفه بذكر النعام التائه في الفلاة وهذه إشارة إلى عدم التركيز في فتاوى واصل بن عطاء ضد من يتهمهم بالكفر أو الزندقة ولعل السبب في هذا الهجاء من بشار لحماد هو إنكار واصل بن عطاء لقول بشار بالرجعة وتكفير جميع الأمة، وتصويبه لرأي إبليس في تقديم النار على الطين.

وقيل إن سيبويه عاب على بشار استخدامه بعض الحروف خطأ والأوزان كالوجل والغزل على وزن فعلى ونون ونينان عندما قال تلاعب نينان البحور في وصفه للسفينة فقال بشار يهجوه:

اسيبويه يا بن الفارسية ما الذي
تحدثت عن شتمي وما كنت تنبذُ
أظلْت تغني سادرا في مساءتي
وأمك بالمصرين تُعطي وتأخذُ

ومن الذين هجاهم بشار وهجوه أبو زيد وكان جليساً لبشار وصديقاً، فبعث إليه يوماً يطلب منه ثياباً بنسيئة(٢) فلم يصادفها عنده، فقال يهجوه:

---

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٤٥.
(٢) النسيئة: التأخير، يقال: باعه بنسيئة: إذا أخر له عن الشيء المبيع.

ألا إن أبا زيدٍ
زنى في ليلة القدرِ
ولم يَرْعَ، تعالى اللـ
ـه ربِّي، حرمة الشهْرِ

وكتبها في رُقعة وبعث بها إليه، ولم يكن أبو زيد ممن يقول الشعر، فقلبها وكتب في ظهرها:

ألا إن أبا زيدٍ
له في ذلكم عُذْرُ
أتته أم بشارٍ
وقد ضاق بها الأمرُ
فواثبها فجامعها
وما ساعَده الصبرُ

قال: فلما قرئت على بشار غضب وندم على تعرضه لرجل لا نباهة له، فجعل ينطح الحائط برأسه غيظاً، ثم قال: لا تعرضت لهجاء سفِلة مثل هذا[1].

إن من يتعرض للناس بالأذية، لا بد له من أن يلقى الأذى على مثله.

ومن الذين هجاهم بشار روح بن حاتم الذي قذفه بالكلام وتهدده فقال فيه:

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٨٨.

تهددني أبو خلف
وعن أوتاره ناما
بسيف لأبي صُعْرَةَ
لا يقطع إبهاما
وكان الدرس يعلوه
إذا ما صدره قاما

ولما بلغ هذا القول روحاً قال: كل مالي صدقة إن وقعت عيني عليه لأضربنه ضربة بالسيف ولو أنه بين يدي الخليفة! فبلغ ذلك بشاراً فقام من فوره حتى دخل على المهدي؟ فقال له: ما جاء بك في هذا الوقت؟ فأخبره بقصة روح وعاذ به منه، فأرسل المهدي وراء روح ولما حضر قال له المهدي: يا روح إني بعثت إليك في حاجة؛ فقال له: أنا عبدك يا أمير المؤمنين فقل ما شئت سوى بشار فإني حلفت في أمره بيمين غموس[1]؛ قال: قد علمت وإياه أردت؛ قال له: فاحتل ليميني يا أمير المؤمنين؛ فأحضر القضاة والفقهاء فاتفقوا على أن يضربه ضربة على جسمه بعَرْض السيف، وكان بشار وراء الخيش، فأخرج وأقعد واستل روح سيفه فضربه ضربة بعرضه؛ فقال: آوه باسم الله! فضحك المهدي وقال له: ويلك! هذا وإنما ضربك بعرضه وكيف لو ضربك بحده[2].

---

(١) اليمين الغموس: التي لا استثناء فيها.
(٢) الأغاني ج٣ ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

النوع الثاني من الهجاء عند بشار هو هجاؤه للعرب تحت تأثير التعصب القومي:

يقول بشار:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم
مولى العُرَيب فخذ بفضلك فافخرِ
مولاك أكرم من تميم كلها
أهل الفَعال ومن قريش المشعر(1)
فارجع إلى مولاك غير مدافع
سبحان مولاك الأجل الأكبر(2)

فبشار هنا يتبرأ من ولاء العرب، ويربط نفسه بولاء الله تعالى الذي هو أكرم من تميم وقريش، ونحن كنا نبارك له هذا الولاء لأنه نعم الولاء لولا معرفتنا بضعف دين بشار، واستهتاره بتعاليم الله. وما حث عليه، لكن بشاراً يخاف من أن يصرح علانية بولائه القومي الذي سيثير عليه العرب الذين يعيش بين أظهرهم، فيلتجي إلى ما يعصمه من ذلك الغضب بالالتجاء إلى الله تعالى، ثم نلاحظ تلك العبارات التي يستخدمها بشار هنا لتحقير العرب. والحط من قيمتهم عندما يستخدم أداة التصغير (عُرَيب) للعرب، كما يشير إلى عاداتهم الدينية الجاهلية في مناسك الحج.

---

(1) الفعال (بالفتح): اسم للفعل الحسن من الجود والكرم ونحوه.
(2) الأغاني ج3 ص 139 والديوان ص 124.

ولنسمعه كيف تثور ثائرته لمجرد أن سأل أعرابي عنه أمولى هو أم عربي، وكيف راح يهجو العرب عبر هذا الأعرابي، ويصف حياتهم ومعيشتهم بأبشع الصور فيقول:

خليلي لا أنام على اقتسارِ
ولا أبي على مولىً وجارِ
سأخبر فاخر الأعراب عني
وعنه حين تأذنُ بالفخارِ
أحين كُسيتَ بعد العُرْي خزّاً
ونادمت الكرامَ على العُقارِ
تفاخر يابن راعية وراعٍ
بني الأحرار حسبُك من خسارِ
وكنت إذا ظمئت إلى قَراحٍ
شركت الكلبَ في وَلْغ الإطارِ
تُريغ بخطبه كسر الموالي
وينسيك المكارم صيد فارِ
وتغدُو للقنافذ تدَّريها
ولم نعقل بذرَّاج الديارِ
وتتشح الشمال للابسيها
وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا
فليتك غائب في حَرِّ نارِ

وفخرك بين خنزير وكلب
على مثلي من الحدث الكبارِ[1]

فالعربي عاري الجسد، راعٍ ابن راعية، إذا عطش شرب مع الكلب من مصدر واحد ومع هذا يتجرأ بالمفاخرة على الموالي، ناسياً حياته القائمة على صيد الفئران، وركضه وراء القنافذ ليصطادها، كما يسرح وراء قطعان الضأن ليرعاها في أرض جدباء قاحلة وينتهي بشار إلى القول ناصحاً الأعرابي بعدم الجلوس مع الكرام حتى لا ينجسهم، وبدلاً من أن يفتخر على الموالي ليفتخر على الكلب والخنزير فهما أولى به.

النوع الثالث من الهجاء فهو هجاؤه لأهل السلطة الذين بخلوا عليه بالعطاء.

استمنح بشار بن برد العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فلم يمنحه فقال يهجوه:

ظل اليسار على العباس ممدودُ
وقلبه أبداً في البخل معقودُ
إن الكريم ليخفي عنك عُسْرَتَهُ
حتى تراه غنياً وهو مجهودُ
وللبخيل على أمواله عِلَلٌ
زرق العيون عليها أوجه سودُ

(١) الأغاني ج٣ ص ١٦٦ والديوان ص ١١٨.

إذا تكرَّهت أن تُعْطي القليل ولم
تقدِرْ على سَعَةٍ لم يظهر الجُودُ
أورقْ بخير تُرَجَّى للنوال فما
تُرْجى الثمارُ إذا لم يورق العُودُ
بثَّ النوال ولا تمنعك قلتُهُ
فكل ما سد فقراً فهو محمودُ(١)

العباس بن محمد غني في ماله، لكنه فقير في قلبه، الذي لا يجرؤ على العطاء مخافة الفقر.

ويلمح بشار إلى قضية هامة تخفى على الأغنياء وهي أن بعض الناس تظهر عليهم إمارات الغنى، بينما هم في الواقع فقراء، وهذا المعنى استقاه الشاعر من القرآن الكريم الذي يتحدث عن الفقراء فيقول عنهم: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾(٢).

وببراعة فائقة يظهر بشار المهجو في قالب من السخرية، بحيث أن الإنسان يشعر بالازدراء من أن يتصف بمثل هذه الصفات، ثم نراه يقيم علاقة مقارنة بين صفات البخل وصفات الكرم، وكأنه يريد أن يغضّ من قيمة العباس بن محمد وتشويه صورة كل من يحاول أن يقتدي به، بل من يسمع هذه الأبيات يشعر في قرارة نفسه بأن عليه أن يبتعد عن صفة البخل، وأن

(١) الأغاني ج٣ ص ١٩٥ الديوان ص ٧٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

يتحلى بصفة الجود والكرم لأن الأولى تنقص من قيمة الإنسان، بينما الثانية تعلي من شأنه ومن قيمته.

ونحن لا بد لنا من أن نعترف بقدرة بشار الخارقة على ربط عناصر التشبيه بعضها ببعض، فلننظر إليه كيف اختار العيون الزرق للوجه الأسود ليدل على بشاعة الصورة، لأن العيون الزرق تكون عادة في الوجه الأبيض، والعيون السود في الوجه الأسمر.

كما تتضمن الأبيات معاني الإرشاد والتوجيه والحث على العطاء حتى ولو كان قليلاً لأن القليل خير من لا شيء، وهو يسد بعض الفقر إذا لم يسده كله. والإنسان الذي يكره عطاء القليل، ولا يقدر على عطاء الكثير، هو بمنزلة واحدة مع البخيل، لأن كلاهما ممتنع عن العطاء.

مدح بشار سليمان بن هشامٍ بن عبد الملك فوصله سليمان بخمسة آلاف درهم وكان يُبخَّل، فلم يرضها وانصرف عنه مغضباً فقال:

إنْ أمسى منقبض اليدين عن الندى
وعن العدو مُخَيَّس الشيطانِ(١)
فلقد أروح عن اللئام مُسَلَّطاً
ثَلِجَ المَقِيلُ مُنَعَّمَ النَّدمَانِ(٢)

---

(١) مخيس: مذلل.

(٢) ثلج المقيل: باردة.

فـي ظِـلٍّ عيش عـشيـرة مـحـمـودة
تـنـدى يـدي ويُخـافُ فـرط لـسـانـي
أزْمـان جـنـيٌّ الـشـبـاب مـطاوعٌ
وإذا الأمـيـرُ عـليٌّ مـن خـزّانِ
ريـم بـأحـويـة الـعـراق إذا بـدا
بـرقـتْ عـليـه اكـلّةُ الـمـرْجـان(١)
فـاكحـل بعبـدة مقلتيـك من القـذى
وبـوشـك رؤيـتـهـا مـن الـهـمـلان
فـلقُـرْبُ من تـهـوي وأنـت مـتيَّمٌ
أشـفـى لـدائـك مـن بـنـي مـروان(٢)

يعزي الشاعر نفسه بأنه وإن عاد من عند سليمان بن عبد الملك خالي اليدين لأنه لم يُقدِّر مدحه له حق قدره، وكأنه أراد إذلاله، فهو قد تعود على مثل تلك المواقف، فليست هذه هي المرة الوحيدة التي يعود فيها من عند اللئام مهضوم الحقوق. فهؤلاء الناس قد تعودوا أن لا يكرموا إلا كل نديم يضاحكهم، ويسامرهم، فيضحك عليهم ليسلبهم أموالهم، أما من يريد أن يخلدهم بشعره فهو مغبون عندهم، هؤلاء معذورون في ذلك لأنهم قصيرو النظر لا يعرفون أبعاد تصرفاتهم.

(١) أحوية: جمع حواء، والحواء (بالكسر) جماعات البيوت المتدانية.
(٢) أكلة: جمع إكليل، والإكليل: التاج وشبه عصابة تزين بالجواهر.

ويعود الشاعر إلى قبيلته ليجد عندها التقدير والثناء، لأنه يذود عنها بلسانه الذي يخيف الناس. كما يعود إلى من يحب من الحسناوات ليتمتع بجمالها، وسحر عينيها، فنظرة إليها خير من عطاء بني مروان.

وقال بشار يهجو المهدي بعد أن أنشده قصيدة يمدحه بها ولم يحظ منه بما يريد(1):

خليفة يزني بعمامته
يلعب بالدَّبُّوق والصولجانِ(2)
أبدلنا الله به غيره
ودس موسى في حر الخيزران(3)

أية جرأة يمكن أن تصل إلى هذا المستوى عند بشار، وأية ألفاظ أشد إيلاماً من ألفاظها في هجائه. فالمهدي يلعب بلعبة حقيرة يلعب بها الصبيان، ثم تعرض لزوجته الخيزران

---

(1) فمما قاله في مدحه:

إلى ملك من هاشم في نبوة
ومن حمير في الملك والعدد الوتر
من المشتري الحمد تندى من الندى
يداه وتندى عارضاه من العطرِ

(مرآة الجنان ج1 ص 355).

(2) الدبوق: لعبة يلعب بها الصبيان ذكرها صاحب القاموس وصاحب اللسان في مادة (دبق).

(3) والخيزران جارية من جواري المهدي تزوجها فولدت له موسى وهارون (الأغاني ج3 ص 243).

وهجا بشار يعقوب بن داود وزير المهدي لأنه مدحه ولم يحفل به. ولم يعطه شيئاً فقال:

بني أميـة هبـوا طـال نـومُكُم
إن الـخليفـة يعقـوب بـنُ داودِ
ضاعتْ خلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفـة الله بين الـزِّقِّ والعـودِ(١)

وكان سبب هذا الهجاء أن بشارا طالت أيامه على باب يعقوب دون أن يسمح له بالدخول أو العطاء فقال:

يعقـوب قـد ورد العفـاةُ عشيـة
متعـرضين لسيبـك المُنتـاب(٢)
فسقيتهـم وحسبتنـي كمونـة
نبتـت لزارعهـا بغيـر شـراب
مهـلاً لـديـك فـإنـني ريحـانـة
فـاشمم بأنفـك واسقهـا بـذنـاب(٣)
طـال الـثـواءُ عـلى تـنـظُّر حـاجـة
شمطت لديـك فمن لها بخضـاب(٤)

(١) الأغاني ج٣ ص ٢٤٣ الديوان ص ٩١.
(٢) المنتاب: الذي يأتي مرة بعد أخرى.
(٣) ذناب: جمع ذنوب، والذنوب الدلو الملأى.
(٤) شمطت: تأخر قضاؤها وطال عليها الأمد، واصل الشمط أن يخالط سواد الرأس بياض شيب.

تُعطي الغزيرة درها فإذا أبت
كانت ملامتها على الحلاب[1]

يقول ليعقوب: أنت من المهدي بمنزلة الحالب من الناقة الغزيرة التي إذا لم يوصل إلى درها فليس ذلك من قبلها، إنما هو من منع الحالب منها، وكذلك الخليفة ليس من قبله لسعة معروفه، إنما هو من السبب إليه[2].

وقال يهجو حماد عجرد:

يا أبا الفضل لا تنم
وقع الذئب في الغنم
إن حماد عجرد
إن رأى غفلة هجمْ
بين فخديه حربة
في غلاف من الأدم
إن خلا البيت ساقه
مجمع الميم بالقلم[3]

فحماد عجرد أشبه ما يكون بالذئب في غدره. ولهذا يجب التنبه لمخاطره إذا كان هناك من غنم خشية من أن يفتك بها، ولهذا يجب الحذر من إدخاله إلى البيوت الشريفة حتى لا يهتك حرمتها، ويلوث سمعتها.

(١) الغزيرة: الكثيرة الدّر.
(٢) الأغاني ج٣ ص ٢٤٦ الديوان ص ٣٨.
(٣) الديوان ص ٢١٢.

المديح

إن من يلقي النظر على نصوص بشار الشعرية في المدح، لا بد له من أن يلاحظ وبيسر سمة واضحة تطبعه هي سمة الاستجداء، فبشار لم ينس قط عندما يقف أمام الممدوح أنه فقير. وأن عليه أن يثير في الممدوح روح الشفقة قبل روح الإعجاب ليبذل له العطايا، وكان يزن الرجال بموازين ما تدر أيديهم عليه من جزيل العطاء، ولا فرق عنده أكان الموزون خليفة أو أميراً، أو وزيراً، أو قائداً، أو شخصاً عادياً. والروايات التي كانت تتناقل أخبار بشار تدل على أنه قد امتلك ثروة لا بأس بها، وأنه كان منعماً في حياته، ومع هذا بقي يشعر بعقدة النقص التي تسمى فقراً، ولم يحاول أن يزيلها من ذاكرته. ولنعط دليلاً على صدق ما نقول علينا أن نتعرض إلى بعض نصوصه في المدح لنؤكد ذلك.

روي أن أبا الشمقمق الشاعر المشهور وكان على حالة شديدة من الفقر، جاء بشاراً يشكو إليه فقره وضيقه، ويحلف له أنه ما عنده شيء. فقال له بشار: والله ما عندي شيء يغنيك، ولكن قم معي إلى عقبة بن مسلم فقام معه، فذكر له أبا الشمقمق وقال: هذا شاعر وله شكر وثناء، فأمر له بخمسمائة درهم. فقال له بشار مادحاً:

يا واحد العرب الذي
أمسى وليس له نظيرُ
لو كان مِثْلَكَ آخر
ما كان في الدنيا فقيرُ[1]

فأمر له بألفي درهم. فقال له أبو الشمقمق نفعتنا ونفعناك يا أبا مُعاذ فجعل بشار يضحك.

ما هي الصفة التي وصف بشار بها عقبة بن مسلم، إنها صفة الكرم، وحب التصدق على الفقراء، ولا شك أن بشاراً قد وضع نفسه مع أبي الشمقمق في منزلة واحدة من الفقر حتى أثار عاطفة ابن مسلم فأكرمه كما أكرم أبي الشمقمق.

ولننظر إليه كيف يخاطب خالداً البرمكي وهو يمدحه قائلاً:

لعَمْري قد أجدى على ابن برمك
وما كل من كان الغنى عنده يجدي
حلبت بشعري راحتيه فدرتا
سماحا كما در السحاب مع الرعدِ
إذا جئته للحمد أشرق وجهه
إليك وأعطاك الكرامة بالحمدِ
أخالد إن الحمد يبقى لأهله
جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكدِ

(١) الديوان ص ١٠٤.

فأطعم وكل من عارة مستردة
ولا تبقها إن العواري للردِ[1]

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم.

يبدأ الشاعر قصيدته ببيت من الشعر تتمثل الحكمة في الشطر الثاني منه، ثم يستعرض حالته ومنزلته عند الممدوح، فإذا هو يحوز على النصيب الأكبر من عطاياه، ثم يتطرق إلى وصف الممدوح فإذا هو في المنزلة العالية في الكرم والسخاء، وهو مشرق الوجه دائماً بالابتسامة التي تريح زائريه، وتدفعهم على التشجع في طلب الحاجة، وكلمامدح هذا الرجل، ازداد عطاءً. لكن بشاراً في البيت الرابع تظهر عليه إمارات الحذر من الممدوح في التخلي عن العطاء، فيضمن بيته عبارات تدل على التحذير بأسلوب مغلف بالحكمة، كما أنه يختتم أبياته ببيت أخذ معناه من القرآن الكريم وجاء به كشاهد على وجوب إطعام الفقراء والإحسان إليهم: قال تعالى: ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾.[2]

ولننظر إليه أيضاً كيف يكون مدحه بمقدار ما يعطى. قيل لبشار: إن مدائحك عقبة بن مسلم فوق مدائحك كل أحد. فقال بشار: إن عطاياه إياي كانت فوق عطاء كل أحد. دخلت إليه يوماً فأنشدته:

---

(١) الديوان ص ٨٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٦.

حرَّم الله أن ترى كابن مسلم
عُقْبَةُ الخير مطعمُ الفقراءِ
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو
فِ ولكن يلذُ طعم العطاءِ
يسقط الطير حيث ينتشر الحب
وتغشى منازل الكرماءِ

فأمر لي بثلاثة آلاف دينار، وها أنا قد مدحت المهدي وأبا عبيد الله وزيره فلم يعطياني شيئاً، أفألام على مدحي هذا.

الرد الصريح من قبل بشار على من اتهمه بأنه قد خصص مدائحه المشهورة لعقبة بن مسلم دون سواه، لأن هذا الأمر مرده إلى كون عقبة ليس كسائر الناس في صفاته، فقد أعطاه على أبيات مبلغاً كبيراً من المال، في حين أنه مدح المهدي، ووزيره أبا عبيدة ولم يعطياه شيئاً. هذه نقطة نسْجلها على بشار بأنه قد ربط ربطاً محكماً بين العطاء والمدح. وهذه تجعلنا نقول بأن شعر بشار صنع للارتزاق. وأن الصفات التي يلصقها بالممدوح قد لا تكون مطابقة تماماً للواقع.

نقطة ثانية نسجلها لبشار وهي أنه في هذه الأبيات استطاع أن يرقى بفنه الشعري أكثر من النص السابق، لأنه وضع عقبة بن مسلم في وضع مثالي؛ فهو لا يأبه للمدح ولا للتهديد، فعملية العطاء عنده سجية، أو خصلة حميدة جاءت

معه منذ الولادة وهو لا يستطيع التخلي عنها. كما أن له علامة واضحة هي تهافت الناس عليه، لا طلبا للرزق، فالرزق مؤمن، ولكن لمدحه والثناء عليه، كما تعتاد الطيور أن تحط في أماكن الخير، حيث يوجد الرزق والعيش.

وقال يمدح سليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان مقيما بحران وخرج إليه فأنشده:

وقائلة لي حين جدَّ رحيلنا
وأجفان عينيها تجود وتسكبُ
أغاد إلى حران في غير شيعة
وذلك شأو عن هواها مغرَّبُ[١]
فقلت لها كلفتني طلب الغنى
وليس وراء ابن الخليفة مذهب
سيكفني فتى من سعيه حدُّ سيفه
وكورَ علافيٍّ ووجناء ذعلبُ[٢]
إذا استوعرت دار عليه رمى بها
بناتُ الصوى منها ركوب ومصعب[٣]

(١) مغرب (بكسر الراء فتحها) بعيد.
(٢) الكور: الرجل. والعلافي: نسبة إلى علاف بن طوار لأنه أول من عملها. ذعلب: سريعة.
(٣) يقال: وغرت الهاجسة تغر وغراً من باب ضرب إذا رفضت.

فعدي إلى يوم ارتحلتُ رسائلي
نوافلك الفعال من جاء يضربُ
لعلك أن تستيقني أن زورتي
سليمان من سير الهواجر تُعْقب[1]
أغَرُّ هشامي القناة إذا انتمى
نمته بدور ليس فيهن كوكب
وما قصدت يوماً مخيلين خيله
فتصرف إلا عن دماء تصببُ[2]

بشار هنا ينهج منهج الشعراء القدامى في حرصه على إبداء ما يتجشمه للوصول إلى الممدوح من ترك للحبيب، وعذاب من مشاق السفر؛ فالحر الشديد في النهار، والبرد القارس في الليل. وهو يرحل فريداً لا يؤنسه أحد في وحشة سفره. ثم يعترف بشار أنه إنما يقوم بهذه الرحلة ليحقق مطلباً طالما حلم به وهو الغنى، وهذا الغنى لا يتحقق إلا من عند ابن الخليفة. هذا الفتى المغامر الذي هو بشار يعتمد في رحلته إلى (حران) حيث يقيم ابن الخليفة على حد سيفه، وعلى راحلة سريعة وصلبة قوية. وشعار هذا الفتى أنه إذا ما ضاقت به أرض تركها وراح يضرب بحوافر راحلته حصى الطرقات. وقد يستخدم لرحلته من النوق التي ذللت بالمطي أو لم تذلل.

(١) الصوى: جمع صوة وهي حجارة تجعل علماً يهتدى بها في المفازة. الركوب: المذلل بالركوب.
(٢) الأغاني ج٣ ص ٤١٨ والديوان ص ١٧.

ثم يطلب الشاعر من الخليفة أن تعد له متاع السفر، وخاصة الماء ليقاوم به حر الهجير. والممدوح فتى أغر هشامي القناة، وهو إذا ما انتمى، فإنه ينتمي إلى بدور ليس فيهن كوكب. والشاعر لم يأتِ مرة لزيارة هذا الأمير الشاب، إلا ورآه عائداً من معركة وبدت الدماء تتصبب من خيله لالتحامها بالأعداء وتساقط دماء هؤلاء الأعداء عليها.

إن التكلف في المدح هنا ظاهر وواضح، فنحن لا نشعر بأي انفعال نفسي عند الشاعر نتيجة لمقابلته للممدوح. ولم يشر إلى صفاته إلا بأوصاف عامة بعيدة عن التأثير والإعجاب من ذلك الممدوح.

وقدم بشار على المهدي بالرُّصافة، فدخل عليه في البستان فأنشده مديحاً فيه تشبيب حسن، فنهاه عن التشبيب لغيرة شديدة كانت فيه، فأنشده مديحاً فيه فقال:

كأنما جئته أبشره
ولم أجيء راغباً ومحتلبا
يزين المنبر الأشم بعطـ
ـفيه وأقواله إذا خطبا
تُشَمُّ نعلاه في الندى كما
يُشَمُّ ماءُ الريحان منتهبا[1]

فأعطاه خمسة آلاف درهم، وكساه وحمله على بغل،

(١) الديوان ص ٢٥.

وجعل له وفادة في كل سنة. فبشار يأتي هذه المرة لزيارة الخليفة المهدي ويمدحه لمجرد المدح، دون أن يضع في فكره أمر العطاء. فالخليفة المهدي إذا صعد المنبر، فإنه يزين ذلك المنبر بعطفيه، وبأقواله، ورائحة العطاء تنبعث من تحت قدميه، كما تنبعث الرائحة الطيبة من ماء الريحان.

ومما قاله في مدح ابن هبيرة:

رويدَ تصاهَلْ بالعراق جيادنا
كأنك بالضحاك قد قام نادبُهْ[1]
وسام لمروان ومن دونه الشجا
وهول كَلُجِّ البحر جاشت غواربه
أحلت به أم المنايا نباتها
بأسيافنا، إنّا ردى من نحاربه
وكنا إذا دب العدو لسخطنا
وراقبنا في ظاهر لا نراقبه[2]
ركبنا له جهداً بكل مثقف
وأبيض تستسقي الدماءَ مضاربه[3]

---

(١) رويد: في اللسان (مادة رود) الوعيد.
(٢) دب: مشى في استخفاء.
(٣) المثقف: الرمح المقدم، الأبيض: السيف.

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى
وبالشوك والخطيِّ حُمْرٌ ثعالبُهْ(1)
غدونا له والشمس في خدر أمها
تطالعنا والطَلُّ لم يَجْرِ ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه
وتدرك من نجلي الفرارُ مثالبه(2)
كأن مثار النقع فوق رءوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(3)
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا
بنو المُلْك خفاقٌ علينا سبائبُهْ(4)
فراحوا: فريق في الاسار ومثله
قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربُه
إذا الملك الجبار صعر خده
مشينا إليه بالسيوف نعاتبه(5)

يمكن تقسيم هذا النص إلى أربعة أقسام؛ في القسم

(1) يزحف: يهجم. بالحصى: أي أنه كالحصى كثرة، الشوك هنا: السلاح. الحظي: الرمح. ثعالبه: أطرافه.
(2) مثالبه: معايبه.
(3) النقع: غبار الحرب.
(4) سبائبه: أعلامه.
(5) الأغاني ج3 ص 197 (237).

الأول يتحدث بشار عن الضحاك بن قيس أحد القادة المرتدين على الأمويين مع ابن الزبير، فيتوعده الشاعر بأن جيوش ابن هبيرة والي العراق من قبل مروان بن محمد الخليفة الأموي ستأتي إليه وتقيم المآتم عليه.

في القسم الثاني يفتخر بشار بقيس مواليه، وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد بصورة عامة، والخليفة مروان بن محمد بصورة خاصة، فإذا هو صاحب جيش تتماوج فيه البشر وتصطخب كما تصطخب الأمواج العاتية في البحر، هذا الجيش يحمل معه الموت تحت ظلال السيوف، فأينما نزل نزلت المنايا. وهنا نجد الشاعر يتنفس بنفس جاهلي، يذكرنا بالنابغة الذبياني عندما وصف جيوش الغساسنة، أو جيش النعمان بن المنذر عندما كان يستطرد في وصف زحف الجيش ووصف عدوه وعتاده، كذلك فعل بشار. فجيش مروان بن محمد لجب كثير العدد، وهو مجهز بالسيوف البيض والرماح المقدمة. وهو كالحصى لكثرته، والدماء تسيل من أطراف السيوف لكثرة ما قتل من الأعداء.

القسم الثالث يتحدث فيه الشاعر عن الوقت الذي يختاره هذا الجيش لضرب أعدائه، فإذا هو قبل طلوع الشمس حيث قطرات الندى لا تزال على الزهر لم تتبخر من حرارة الشمس.

وتدور المعركة فإذا بالسيوف تضرب الأعناق، والغبار

يرتفع فوق الرؤوس، ولمعان السيوف يبرق كما تبرق الكواكب المتهاوية، وإذا النفوس تذوق طعم الموت.

القسم الرابع: وفيه يقتل من يقتل، وأما من تبقى من الأعداء فليس أمامه إلا أمر من اثنين: إما الفرار، وإما الوقوع في الأسر.

وقد أشار شوقي ضيف إلى ثلاثة قضايا في هذا النص، المبالغة ومجاوزة القصد تماشياً مع الطبع العربي، وعجزه عن تمثل الدقائق التي لا ترى إلا بحاسة البصر، ثم أخيرا استطاع في مديحه هذا أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة عناصر مستحدثة[1].

ونحن عند قراءتنا لهذه القصيدة نجد أنفسنا أمام لوحة متنوعة الألوان تمثل البطولة بقالب ملحمي يعتمد على اختياره لمجموعة من الألفاظ والتشابيه والاستعارات التي تخدم النص. فمن هذه الألفاظ، قام نادبه، الملك الجبار، صعر خده، مشينا إليه بالسيوف، لج البحر، أم المنايا، كجنح الليل، يزحف بالحصى، مثار النقع.

ومن التشبيهات، تشبيهه لجيش مروان بأمواج البحر، وجنح الليل يزحف بالحصى، ولمعان السيوف بالكواكب المتهاوية.

ومن الاستعارات: جعله للمنايا أما، ولليل جنحاً

---

(١) العصر العباسي الأول ص ٢١١.

وللشمس أماً، وللموت مذاقاً وطعماً.

ومن مدحه لنافع بن عقبة ابن سلم بعد موت أبيه:

ولنافع فضل على أكفائه
إن الكريم أحقُّ بالتفضيلِ
يا نافع الشِّبْرات حين تناوحت
هوج الرياح وأعْقِبتْ بِوبولِ[1]
أشبهت عقبة غير ما متشبه
ونشأت في حلمٍ وحسن قبُول
ووليت فينا أشهراً فكفيتنا
عَنَتَ المُريب وسلة التضليلِ[2]
تدعى هلالاً في الزمان ونافعاً
والسَّلْمُ نِعْمَ أُبُوَّة المأمول[3]

فأعطاه مثل ما كان يعطيه أبوه في كل سنة إذا وفد عليه.

يحاول بشار في هذه الأبيات أن يخلق نموذجاً جديداً من الشعر لم نألفه عنده من قبل. فهو يجعل العطاء لا يكون إلا من كريم لكريم. لهذا يضع نفسه جنباً إلى جنب مع نافع بن

---

(١) الشبرات: جمع شبرة أو الشبرة (بالكسر): العطية. والوَبْل: المطر الشديد.

(٢) سلة التضليل: إخراج السيوف من أغمادها عند القتال، ويكون المراد بسلة التضليل: ظهور التضليل وانتشاره، ولعلها (سنة التضليل).

(٣) الأغاني ج٣ ص ٢٣٠.

عقبة، وهذا أمر مستغرب من بشار، فقد اعتدنا أن نعرفه بين صفوف الفقراء والمساكين، وهو الآن يضع نفسه بين علية القوم الكرام.

ثم يتحدث بشار عن نافع بن عقبة، فإذا هو كثير العطاء، وعطاؤه أشبه ما يكون بالمطر الشديد الذي يعقب الرياح الهائجة. وليس هذا أمراً عجيباً منه فقد نشأ نشأة أبيه عقبة، وتعلم منه خصاله ومحامده ومنها الحلم، وحسن القبول. وعندما ولي نافع مكان أبيه ساد المجتمع الهدوء والاستقرار، واختفى التضليل، ولهذا فقد سمي بأسماء مختلفة منها: هلال الزمان، ونافع. لأنه بسط نعمة السلام على الناس.

وإذا كانت المناسبات هي عادة التي تجلب لأصحابها المدح من الشعراء، لأنها فرصة تستغل لمدح أصحابها، فقد كان بشار من هؤلاء المستفيدين من هذه المناسبات، فقد حدث أن رأى خالد البرمكي أن عبارة السائل أو السؤال عبارة عامة يندرج تحتها كثير من الناس، منهم الأشراف والأمراء وأبناء النعم، فارتأى أن يستبدل هذه العبارة بعبارة أخرى أكثر ملاءمة وتكريماً فجعل عبارة الزوار مكانها، فوق بشار يمدحه على فعله هذا فقال:

حذا خالد في فعله حذو برمك
فمجد له مستطرف وأصيلُ
وكان ذوو الآمال يدعون قبله
بلفظ على الإعدام فيه دليلُ

يسمّون بالسُّؤال في كل موطن
وإن كان فيهم نابه وجليلُ
فسماهمُ الزوار ستراً عليهمُ
فأستارُه في المجتدين سُدُولُ

فلما سمع خالد هذه الأبيات أعطاه لكل بيت ألف درهم[١].

وقال يمدح المهلب بن أبي صفرة:

هجر المقامة لو يكن مناخه
بأغرّ تزدحم الوفود ببابهِ
ملك إذا زأرت أسود قبيلة
زأر المهلب وابنه في غابهِ
والدُّ يَنْبَهمُ الخصوم إذا بدا
بصواب منطقه وغير جوابهِ
ويكادُ يظلمُ حين يغشى بابه
من لين جانبه ولين صحابِه[٢]

فالمهلب فيه ميزات الملوك المحبين لشعبهم، ولهذا ترى الوفود تزدحم ببابه لتزوره أو لتقضي حوائجها عنده، لهذا بات هذا الرجل مقصد جميع الناس دون استثناء هذه هي ميزة الكرم عنده. أما ميزة الشجاعة فهي لا تقل مستوىً عن ميزة

(١) الأغاني ج٣ ص ١٧٣.
(٢) الديوان ص ٤١.

الكرم، فهو إذا وصف بالشجاعة فأقلها أن يوصف بالأسد في عرينه يزأر فترتعد الأبطال من زئيره وينتابها الخوف من بطشه، والصفة الثالثة فيه هي الحكمة، فهو يرعى شعبه بـالحكمة وسداد الرأي وحسن المنطق، والشاعر يتعطف عليه ويرجو الناس أن تخفف عنه من مطالبها حتى لا يرهق فهو من عادته أن لا يرفض طلب أحد، كما أن حاجبه مثال عنه لا يدع أحد إلا وأدخله على الأمير.

الغــزل

كان أول بدء بشار في الغزل ما قاله في جارية عشقها وتدعى فاطمة، فسمعها تغني فهويها وأنشأ يقول:

درة بــحـــريــة مــكــنــونــة
مــازهــا الـتــاجــر مــن بـيـن الــدُّررْ

عـجـبـت فــاطـمــة مـن نعتي لـهـا
هــل يجيـد النعتِ مكفــوفُ البـصــر

أمــتــا[1] بــدد هــذا لُــعــبــي
ووشــاحــي خــلــه حــتــى انـتــثــر

أقــبــلت مــغــضــبــة تــضــربــهــا
واعــتــراهــا كــجــنــون مــســتــعــر

بــأبــي والله مــا أحــســنــه
دمــع عــين يـغــســل الـكـحــل قــطــر

أيــهــا الــنــوامُ هــبــوا ويــحــكــم
واســألــوني الــيــوم مــا طعم الســهــر[2]

(١) أمتا: أمة (وهي المملوكة) مضافة إلى ياء المتكلم المنقلبة ألفاً.

(٢) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٧١ ـ ١٧٢.

يمكن تقسيم هذه الأبيات إلى عدة أقسام لكل قسم دوره في عملية الإبداع الفني عند بشار، فبشار لا يتغزل في معشوقته فاطمة إلا ببيت واحد يجعله مقدمة لغزله، فيصفها بأنها كالدرة البيضاء المتلألئة دليلاً على حسنها وجمالها ـ فهنا نوع من التشبيه المادي ـ فالشاعر في نظرته إلى هذه الفتاة كنظرة التاجر الذي يريد أن يشتري شيئاً، فيتوجه إلى أحسنه، وحديثه عنها لا لإثارة وصف مفاتن جمالها، بقدر إثارة ما جرى بينه وبينها من علاقة محض مادية جنسية هذه قضية.

القضية الثانية في النص هي اعتماد الشاعر على عنصر الحوار الذي يتمثل فيما جرى بين الفتاة وبين أمها. ثم نلاحظ التمرد الصادر عن الفتاة ضد أمها والتحول نحو الشاعر، ليس بداعي الإعجاب، بل بداعي الرغبة المادية عندها. وهذا نوع من الإطراء الموجه من الشاعر نحو نفسه ليبين لنا كيف أنه استطاع أن يمتلك عواطف الفتاة، وأن يشدها إليه، ويدفعها إلى التمرد على أمها، رغم ما اعتراها من إيذاء نتيجة لضربها.

ثم نجد أخيراً أن الشاعر يتوجه في ندائه إلى من لا يحاولون التلذذ في سهر الليالي، ويقضون أوقاتهم بالنوم، أن عليهم أن يستغلوا ذلك الوقت لا لشيء إلا للتمتع واللذة.

وإذا كانت فاطمة هي المعشوقة الأولى التي توجه إليها بشار بشعره فهناك معشوقات أخر يتناول بشار حديثه عنهن ومنهن (عَبْدُ) التي يقول فيها:

لـم يَـطُلْ لـيـلي ولـكـن لـم أنـمْ
ونـفـى عـنّـي الـكـرى طـيـف أَلَـمْ
وإذا قـلـت لـهـا جـودي لـنـا
خـرجـت بـالـصَّـمـت من لا ونَـعَـمْ
نفّسي يـا عـبـد عـنـي واعـلمي
أنـنـي يـا عـبـد مـن لـحـم وَدَمْ
إن فـي بـردِيَ جـسـمـاً نـاحـلاً
لـو تـوكـأتِ عـلـيـه لانـهـدمْ
ختـم الـحـبّ لـهـا في عـنـقـي
مـوضـع الخـاتم مـن أهـل الـذِّمَمْ

في هذا النص الذي يمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام؛ نجد الشاعر في البيت الأول يتحدث عن حالته النفسية وخاصة عندما يأتي الليل، لأن فيه يكون الاتصال بمن يريد، والأبيات الثاني والثالث والرابع، يتحدث فيها عن العلاقة بينه وبين الجارية (عبد) وأما البيت الأخير فيبين فيه بشار مدى الصلة المزعومة بالحب بينه وبينها.

في هذه الأبيات نلاحظ أن بشاراً بدلاً من أن يتوجه في غزله للحديث عن مفاتن عبد وجمالها ورقتها، وما يثيره ذلك في نفسه من الإعجاب، فإذا به يتغزل بنفسه، ويضع لذاته أوصافاً ليست من أوصافه؛ كأن يصف جسمه بالنحول والنعومة، بحيث أنها لرقتها لو توكأت عليه لانهدم. والعلاقة

هنا حسب ما يريدها الشاعر علاقة مادية نلاحظها من خلال استخدامه لكلمات لا ونعم، ونفسي، وأنه من لحم ودم. كل هذه الأوصاف لا يأتي بها الشاعر ليثير حبًا متبادلاً بينه وبينها، بقدر ما يريد أن يثير إعجاب الفتاة به، وإغرائها لقبول ما يطلبه منها.

ونجد أن النص قد خلا من كثير من الصور البيانية التي تزين النص، وتثير فيه عناصر الجمال؛ فنحن لا نجد إلا تشبيهاً واحداً، واستعارة واحدة، وكناية واحدة. ويعود السبب في ذلك إلى عدم امتلاك الشاعر لحاسة البصر التي تخوله أن يتفنن في عملية التصوير لشخصية تلك الفتاة. ولا ننسى أن في هذه القصيدة موسيقى جميلة تفنن الشاعر في الإتيان بها، وقد استخدم لهذه الموسيقى حروفاً متناغمة، وكرر استخدامها من أهمها حروف الميم واللام وهي حروف لينة ذات نغم موسيقي، كما أنه استخدم التسكين ليجعل الترابط بين النفحات الموسيقية موجوداً.

وقال بشار متغزلاً:

يا ليلتي تزداد نُكْرا
من حب من أحببت بِكْرا[1]

حوراء إن نظرت إليـ
ـك سقتك بالعينين خمرا[2]

---

(١) النكر: الأمر الشديد.

(٢) الحور: شدة بياض العين وشدة سواد حدقة العين.

وكأن رجع حديثها
قطع الرياضُ كسين زهرا[١]
وكأن تحت لسانها
هاروت ينفث فيه سحرا[٢]
وتخال ما جمعت عليـ
ـه ثيابها ذهباً وعطرا[٣]
وكأنها برد الشرا
ب صفا ووافق منك فِطرا[٤]
جنية أنسية
أو بين ذاك أجلُّ أمرا
وكفاك أنّي لم أحِطْ
بشكاة من أحببتُ خُبْرَا[٥]
إلا مقالة زائرٍ
نشرت لي الأحزان نشرا
متخشعاً تحت الهوى
عشراً وتحت الموت عشرا[٦]

(١) رجع الحديث: ترديده.
(٢) هاروت: اسم مَلَك أو ملك كان يعلم السحر بمدينة بابل.
(٣) ما جمعت عليه ثيابها: هو جسمها الصافي الذكي الرائحة.
(٤) برد الشراب: الشراب البارد. ووافق منك فطرا: أي شربه على عطش.
(٥) الشكاة: الشكوى وهي هنا من ألم العلة.
(٦) المتخشع: المتكلف الخشوع، وهو الخضوع.
الأغاني: طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٥٥ والديوان ص ١١٨.

هذه اللوحة الشعرية هي من اللوحات التي أبدع بشار في رسمها، لكنها لوحة مشوشة لأنها فقدك عنصراً مهماً هو عنصر الرؤية.

في هذه الأبيات نلاحظ نقلة نوعية عند بشار، إذ أنه لأول مرة يحاول أن يبتعد قدر الإمكان عن الوصف المادي، ويقترب قدر الإمكان من الوصف الجمالي؛ فهو هنا لا يشير إلى الوصف المادي إلا في بيت واحد هو البيت السادس. وهو هنا يحاول أن يجعل من نفسه شاعراً غزلياً من الطراز الأول؛ فقد وضع الفتاة التي يريد أن يتغزل فيها أمام خياله، وراح يرسمها رسماً إبداعياً، معتمداً على حواس السمع، والذوق، واللمس، والشم. ليرسم تلك العناصر المكونة لتلك الشخصية؛ فإذا هي فتاة بكر لم تتزوج. وحوراء العينين مع بياض، مما يثير محاسن الجمال عندها.

والصورة الخارجية لتلك الفتاة تتضاءك أمام الصورة الداخلية، وكأن الله أراد أن يكمل تلك الشخصية بحيث انها كانت على قدر كبير من الجمال، يضاف إلى ذلك. ذلك الأدب الراقي الذي تتمتع به تلك الفتاة. فهي على مستوىً من العلم والمعرفة المتنوعة، تتحدث مع الناس، وتنوع حديثها، حتى لا يشعر من يجالسها بالملل أو السأم. وهي في حديثها، وتنويع ذلك الحديث أشبه ما يكون بقطع الرياض الجميلة المتنوعة. وهي تسلب عقول السامعين، وكأن حديثها سحر من الأسحار التي برع فيها هاروت ملك بابل الذي كان يعلم

السحر. هذه الفتاة الجميلة سحر بها بشار، وافتتن بجمالها، ووقع في شراك حبها، وتمنى لو أنه يستطيع الاتصال بها. هذه النقلة النوعية في شعر بشار لفتت نظر شوقي ضيف فقال عنها:
«وواضح في هذه القطعة أثر فقده لبصره، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم والسمع، واللمس، والحس، فهو يصف أنفاسها، وما تنشره من طيب كطيب الرياض، ويصف حديثها وما تذيع فيه من سحر، ويصور جسدها ذهباً وعطرا، أما ما ينعم به من جمالها فشراب بارد سلسبيل صادف صائماً يتحرق عطشاً. وقلما ارتفع في غزله عن الحس، والسمع، والأذن، ونوه بذلك كثيراً في شعره، محاولاً أن يعتذر عن فقده لمعتة الجمال متعة حقيقية بالبصر»[1] حين يقول:

وكاعب قالت لأترابها
يا قوم ما أعجب هذا الضريرْ
هل يعشق الإنسان من لا يرى
فقلت والدمع بعيني غزيرْ
إن تك عيني لا ترى وجهها
فإنها قد صورت في الضمير[2]

في هذه الأبيات نلاحظ أن بشاراً قد اعترف بعجزه عن أن يرتقي بعناصر الجمال في الغزل، بحيث يستطيع أن يأتي

(١) العصر العباسي الأول ط ٢ ص ٢١٧.
(٢) الأغاني ج٣ ص ٢٣٨.

بصور جميلة كالمبصرين، إن هذا من الأمور الصعبة، وإن لم تكن العين عند بشار، فليكن الخيال. ومهما ارتقى وارتفع، ليحل محل العين في عملية التصوير، فإنما يقوم عادة بالاعتماد على الصور التي كان قد سمعها، أو خبرها من خلال تجاربه الخاصة، فيستعير تلك الصور، أو يخترع من خياله هو صورا أخرى، ولكنها في الغالب، تكون مقصرة عن أن تبلغ المستوى الذي تبلغه صور رؤية العين.

«وبشار لا يستطيع أن يكبت مشاعره، وبخاصة عندما أجرى القول على هذا النحو من الحوار. وبهذا الأسلوب الذي يشير إلى قضية صارت حديث الناس، يعجبون، ويتساءلون فيما يشبه الإنكار: هل يعشق الإنسان من لا يرى؟ ويسمع بشار هذا الاستنكار فيرد عليه والدمع يملأ عينيه، ويكون رده على ما نرى من العمق والتأثير حين يقول: إن تكن عيني لا تراها فقد ارتسمت صورتها في الضمير، ثم انظر إلى ما تتضمنه الأبيات من صراحة بشار، وإثارته قضية كهذه تمسه في الصميم، ولها عنده كل هذه الحساسية، ومع ذلك لا تبــرج في إثارتها، واقتحامها بجرأة مع ضيقه بما يلوكه الناس، ويتحدثون فيه. فالأولى بهم أن يكونوا أكثر تحشما وأدبا»[1].

ويقول في موضع آخر مثيرا قضية البصر:

---

(١) موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي للدكتور محمد زكي العشماوي ص ١١٣.

يـزهّـدُني في حـبّ عبـدة مَعشرٌ
قـلوبهـمْ فيـهـا مخـالـفـة قلبـي
فقلت دعـوا قـلبي ومـا اختـار وارتقى
فبـالقلب لا بـالعين يبصر ذو اللُّبِّ
ومـا تبصر العينـان في موضـع الهـوى
ولا تـسمـع الأذنـان إلا مـن الـقـلب
ومـا الحسنُ إلا كـلُّ حسن دعـا الصبـا
وألـف بيـن العـشق والعـاشق الـصَّبِّ(١)

ملامح أخرى تظهر في شعر بشار الغزلي ؛ فهو هنا يضع القلب موضع العين لإبصار مواطن الجمال، وليس هو فحسب الذي يحب عن طريق القلب، بل نجد أيضا كل صاحب عقل ودراية. ويعلل السبب في قلة قيمة العينين في اكتشاف مواضع الحب، إذ أنها لا ترتبط مباشرة بحواس العاطفة والمشاعر، بل نجد الأذن أقرب إلى إدراك هذه الحواس وسماعها من القلب منها إلى العينين.

ثم هو يرى أن الحسن الحقيقي يكون في ذلك الذي يثير الصبابة، ويجعل صلة بين العاشق والمعشوق.

وعاهة العمى لا تفارق خيال بشار، ولهذا يحاول دائماً أن يبرهن أن هناك ما يحل محل العين في التمتع بالجمال وهي الأذن فيقول:

---

(١) الأغاني ج٣ ص ٢٣٨ والديوان ص ٣٤.

يا قومُ أذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا: بمن لا ترى تهذي! فقلت لهم
الأذن كالعين توفي القلب ما كانا(١)
هل من دواء لمشغوف بجارية
يلقى بلقيانها روحاً وريحانا(٢)

وبشار لا يحيد عن الحقيقة فيما قال فقد ساوى الله تعالى بين السمع والبصر والفؤاد حين قال: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾(٣) وقوله تعالى أيضا: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾(٤) وقد حاول كثير من العلماء استخدام وسيلة السمع كأداة أساسية في عملهم كالخليل بن أحمد الفراهيدي الذي ألف كتاب معجم العين معتمداً على حاسة السمع. وقد حاول الشعراء تقليد بشار في إظهار أهمية السمع ومساواتها بالعين كأبي حفص المعروف بابن الشحنة الموصلي الذي قال في قصيدة يمدح بها السلطان صلاح الدين:

وإني امرؤ أحببكم لمكارم
سمعت بها والأذن كالعين تعشق(٥)

---

(١) يوفي: تبلغ.
(٢) الروح (بالفتح) نسيم الريح والراحة والسرور.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٧.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٣٢.
(٥) مرآة الجنان لليافعي ج١ ص ٣٥٤.

ويحاول بشار كما يقول شوقي ضيف أن يتصف بصفة العشاق الحقيقيين على طريقة القدماء فيظهر تذلله واستعطافه لمن يحب، وأنه ممن قتلهم الحب وذلك في غزله لعبدة فيقول:

أبيت أرْمَلَ ما لم أكتحلْ بكمُ
وفي اكتحالي بكم شافٍ من الرَّمَدِ
دقت لكم كبدي حتى لو أنكمُ
تهوون أن لا أريد العيش لم أُرِدِ
كأن قلبي إذا ذكراكم عرضتْ
من سحر هاروت أو ماروت في عُقَدِ
ما هبت الريح من تلقاء أرضِكمُ
إلا وجدتُ لها بَرْداً على كبدي
يرقُّ قلبي وتزدادين لي غِلظاً
ما ذاك فيما أُرَجِّي منك بالسددِ
تخرَّجي بالهوى إن كنت مؤمنة
بالله أن تقتلي نفساً بلا قَوَدِ[1]

إن هذا النوع من الغزل ندر في شعر بشار، فنحن لم نعتدْ أن نرى بشاراً إلا مطارداً من العشيقات يأتين إليه طائعات

(١) الديوان ج٢ ص ٣١٥ والمختار من شعر بشار ص ٨٢ وانظر العصر العباسي الأول ص ٢١٦.

دون طويل عناء. ولكن بشاراً يحاول أن يجعل من نفسه أحياناً شاعراً محباً، وأن شعره ليس كله مادياً بل فيه الشعر العفيف.

وهنا نجد بشاراً أسير حب عبدة، بل هو عبد لها تسيره كيفما شاءت، بل هي التي تتصرف حتى بحياته فتميته متى شاءت، وتحييه متى شاءت، ومع هذا فإن عبدة قاسية على بشار تحاول أن تعبث بعواطفه وأحاسيسه لتشعره بقيمة الحب ومستواه المثالي.

من هذه النصوص الشعرية التي اخترناها، وفي كثير من نصوصه الغزلية الأخرى. نلمس ظاهرة الاحتجاج عند بشار على من ينقص قدره بسبب عماه، فيرى أن البصر ليس هو كل شيء في الوجود، بل قد يعوض الله الإنسان الذي فقد حاسة البصر بحواس أخرى قد تكون أكثر أهمية للإنسان من حاسة البصر، كالقلب والأذن وغيرهما. ثم نلمس استخدامه لإدراك مواطن الجمال الأذن تارة والقلب أخرى.

إن ما أشرنا إليه من شعر بشار في الغزل كان ضمن النطاق المألوف والمعقول، ولكنه يتخذ نوعاً اخر من الغزل يتطرق فيه إلى الفحش والإباحية، مما أسخط عليه الناس والحكام. ومن نماذج هذا الشعر قوله:

قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم
ما في التلاقي ولا في قبلة حرجُ

من راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات الفاتك اللَّهجُ[1]
أشكو إلى الله هَمّاً ما يفارقني
وشرعاً في فؤادي الدهر يعتلج[2]

إنها دعوة صريحة للتمرد على الواقع، والانفلات من كل ما يحد انطلاقة الإنسان نحو لذته. ومن أراد أن يعيش تحت مراقبة الناس، والاكتراث لهم، فإنه سيخيب حظه من اللذة، وسيفوز بها كل مثابر في الحصول عليها. وهو يشكو إلى الله تعالى همه الذي لا يفارقه، والناتج عن دخوله في ميدان العشق، وأن هذا العشق سيهلكه إذا لم يتداركه الله برحمته.

وفي مكان آخر ترتفع عنده حرارة الفحش، فيرى أن جميع النساء هن على حد سواء بالنسبة للعفة، وأن الإنسان إذا لم يتمكن من إحداهن، فعليه المثابرة ليفوز بطلبه.

قاس الهمومَ تَنَلْ بها نُجحا
واللَّيل، إن وراءه صُبْحا
لا يؤيسنك من مخبأة
قول تغلظه وإن جرحا

---

(١) اللهج: المغري بالشيء المثابر عليه. الفاتك: الجريء.
(٢) شرعاً: جمع شارع وهو الداخل في الماء المقصود به الداخل في العشق. معتلج: شديد العلاج في حبل الهلاك من الحب (الديوان ج٢ ص ٥٥).

عُسْرُ النساء إلى مياسرة
والصعب يمكن بعد ما جمحا

فالإشارة هنا واضحة إلى أن العسر الذي تظهره المرأة، والصعوبة والجموح تزول عند إصرار الرجل. وأن اللذات يجب أن لا تكون في حالة التستر، لأنها إذا كانت في تستر فقدت لذاذتها، بل يجب أن تكون علانية، دون النظر إلى غضب الناس واحتجاجهم فأية صورة أوضح من هذه الصورة في الدعوة إلى المجاهرة بالعصيان والتهتك، دون مراعاة لدين أو لضمير في هذا المجتمع.

ويسمع الخليفة المهدي هذا القول، فينهاه عن مثله. ولعل نهي الخليفة المهدي لبشار عن ذكر النساء يعود إلى استهتار نساء البصرة، وشبانها بشعره، حتى قال سوار بن عبد الله الأكبر، ومالك بن دينار: ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى[1].

ونسمعه في هذا الحوار مع من يرتكب معها الإثم الفاحش:

انهض فما أنت كالذي زعموا
أنت وربي مغازل أشِرُ
قد غابت اليوم عنك حاضنتي
والله لي منك فيك ينتصرُ

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٨٢.

يــا ربِّ خــذ لي فقــد تــرى ضــرعي
مــن فــاســق جــاء مــا بــه ســكــرُ
كــيــف بــأمــي إذا رأت شــفــتــي
أم كــيــف إن شــاع مــنــك ذا الــخــبــر
قــلت لهــا عنــد ذاك يــا سكــني
لا بــأس إنــي مــجــرِّبٌ خَــبِــرُ
قــولــي لــهــا بَــقَّــةٌ لــهــا ظــفــر
إن كــان فــي الــبــقِّ ما له ظــفــرُ[1]

شهادة صريحة من المعشوقة بحق بشار تعترف فيها بمهارته في ارتكاب الإثم والفجور، وهي كأنثى تظهر عجزها عن مقاومة رجل قوي ضخم متهالك على اللذة، ثم تظهر أيضاً خوفها من قصاص أمها عندما سترى آثار الفتك بادية على شفتيها، ومن ألسنة الناس إذا ما عرفوا بالخبر، لكن بشاراً يطمئنها إلى أنه رجل مجرب، وعنده الحيل المناسبة، ثم يقترح عليها إن سألتها أمها عن سبب الجراح في جسدها، أن تقول لها: إنها من آثار ظفر بقة حطت عليها، إمعاناً في استخفافه واستهتاره بأعراض الناس.

ومما قاله في الغزل من هذا النوع:

وجــاريــة خــلــقــتْ وحــدهــا
كــأن الــنــســاء لــديــهــا خَــدَمْ

(١) الأغاني ج٣ ص ١٩٢.

دوار العذارى إذا زرنها
أطفن بحوراء مثل الصنم[1]
ظمئت إليها فلم تسقني
بري ولم تشفني من سقم
وقالت هويت فمت راشداً
كما مات عروةُ غماً بغم[2]
فلما رأيت الهوى قاتلي
ولست بجارٍ ولا بابن عم
دسست إليها أبا مِجْلَزٍ
وأي فتىً إن أصاب اعتزم
فما زال حتى أنابت له
فراح وحلَّ لنا ما حرم[3]

لقد شبه الشاعر تحلق النسوة حول الجارية المحبوبة بالجاهليين وهم يطوفون حول صنم (دوار)، كما شبه نفسه بالشاعر العذري عروة بن حزام.

فالقصيدة إذاً سلك فيها الشاعر مسلكاً مادياً يتمثل هذا

---

(١) الدوار بضم الدال وفتحها مع تخفيف الواو وقد تشدد: صنم كانت العرب تنصبه، يجعلونه موضعاً حوله يدورون به.
(٢) يشير إلى عروة بن حزام العذري صاحب عفراء أحد العشاق المشهورين الذين قتلهم العشق.
(٣) الأغاني ج٣ ص ١٦٤ والديوان ص ٢١٤.

المسلك خير ما يتمثل في مراودتها عن نفسها، فلما وجد عندها معارضة، استعمل معها الحيلة، فأرسل إليها من يغويها وهو أبو مجلز، ولما فاز هذا بإغوائها وإقناعها، سلمها إلى بشار ليفتك بها كما فتك بغيرها وأحل لنفسه ما هو محرم.

الرثاء

توفي ابن لبشار فجزع عليه، فقيل له: أجرٌ قدمته، وفرط افترطته، وذخر أحرزته. فقال: ولد دفنته، وثكل تعجلته، وغيب وعدته فانتظرته، والله لئن لم أجزع للنقص ولم أفرح للزيادة. وقال يرثيه:

أجارتنا لا تجزعي وأنيبي[1]
أتاني من الموت المُطلّ نصيبي

بُنَيٍّ على رغمي وسخطي رُزِئْتُه[2]
وبُدِّل أحجاراً وجال قليب[3]

وكان كريحان الغصون تخاله
ذوى بعد إشراق يَسُرُّ وطيب

(١) أناب إنابة عنه في الأمر: أقام مقامه إليه أو إلى الشيء: رجع إليه مرة بعد مرة إلى الله تاب ورجع.

(٢) الرُزْء: رزأ ورزىء. المصيبة الشديدة، ماله: أصاب منه شيئاً فنقصه.

(٣) الجال: الجانب، والقليب في الأصل: البئر لأنها قلبت الأرض بالحفر، والمراد هنا بالقبر.

أصـيـب بـنـي حـيـن أورق غـصـنـه
وألـقـى علي الـهـمَّ كُـلُّ قـريـبِ

عـجـبـت لإسـراع الـمـنـيـة نـحـوه
ومـا كـان لـو مُـلِّيتُـه[1] بـعـجـيـبِ

يخاطب بشار على طريقة امرىء القيس جارته، وإذا كان امرء القيس واضحاً في مخاطبته مدركاً أن السامع عارف من المقصود بالخطاب وهي المرأة التي وجدها امرؤ القيس مدفونة على طريقه، وحيدة في أرض موحشة، وأن المنية قد وافته، وأنه سيكون مقر جسده هنا إلى جانب هذه المرأة، ولهذا أصبحا جيراناً في المثوى؛ فإننا لا نفهم عند بشار من هو المقصود بالجارة، هل هي جارته في المكان مثلاً. وهنا يكون قد حملها أكثر مما هو واجب لأنه يفرض عليها الجزع والإنابة، وهذا أمر مستغرب، لأن من عادة الجار أن يواسي جاره في حزنه لا أن يوازيه فيه، أم يقصد بالجارة زوجته لأنها أقرب الناس إليه.

المهم أن بشاراً يخاطب الجارة ليعلمها أن الموت قد طرق بابه، وأطل عليه ليسلبه أعز ما عنده وهو ولده رغماً عنه، وسخطاً منه، ثم واراه في حفرة بناها من حجارة. ويصف بشار ولده فإذا هو غصن كغصن الريحان الذي ذبل قبل أن يشرق

---

(١) مليته: منعت به، يقال: ملاك الله حبيبك أي متعك بـه. وأعاشـك معه طويلاً. الأغاني ج٣ ص ١٦١ ـ ١٦٢ الديوان ص ٣٣.

ويفوح طيبه. مات وهو في بداية أوراق غصونه، فألقى الهم على أهله وأقاربه.

وأخيراً يتعجب الشاعر من إسراع الموت إلى هذا الفتى قبل أن يتمتع برؤيته والداه. فبشار في استخدامه لبعض العبارات كقوله على رغمي وسخطي وعجبت لإسراع المنية، تدل على ضيق أفق التدين عنده، وهذا ما يؤكد مزاعم من يتهمه بضعف إيمانه.

ورثى بشار بعض أصدقائه فقال فيهم:

كان لي صاحباً فأودى به الدهـ
ـر وفارقته عليه السلامُ
بقي الناس بعد هلك ندامـا
ي وقوعاً لم يشعروا ما الكلامُ
كجزور[1] الأيسار لا كبد فيـ
ـيها لباغ ولا عليها سنام
يا ابن موسى فقد الحبيب على العيـ
ـن قذاة وفي الفؤاد سقام
كيف يصفو لي النعيم وحيدا
والأخلاء في المقابر هام[2]

(١) جزور الإيسار: الناقة التي تنحر للمقامرة عليها.

(٢) هام: أموات. يقال: أصبح فلان هامة أي مات، وهذا هامة اليوم أو غد أي أنه مشرف على الموت.

نـفـسـتـهـم[1] عـلـي أم الـمـنـايـا
فأنـامتـهـم بـعـنـف فـنـامـوا
لا يـغيض انـسجـام عـيـنـي عـلـيـهـم
إنـمـا غـايـة الحـزيـن السـجـام[2]

يتحدث بشار عن فقده الدهر صاحباً محباً له، فهو يلقي عليه السلام، والناس تجهل الألم الذي يعتصر قلبه من جراء فقده لهؤلاء الأصحاب، وأصبح شأنه شأن الناقة التي ذبحت ولا كبد لها ولا سنام، ثم يخاطب ابن موسى ويبين له حاله، فإذا العين أصابها القذى، والفؤاد السقام. ويتساءل بشار كيف يصفو له نعيم الحياة، والأصحاب قد سكنوا في المقابر. لقد انتقمت منه أم المنايا فسلبته هؤلاء الأصحاب. وأنامتهم بقساوة في مقابرهم. وهو لا يملك حيلة وعزاء عن فقدهم إلا البكاء على هؤلاء الأصحاب.

مـا بـال عـيـنـك دمـعـهـا مـسـكـوب
حـربـت فـأنـت بـنـومـهـا مـحـروبُ

وكـذاك من صحب الحـوادث لـم تـزل
تـأتـي عـلـيـه سـلامـة ونـكـوب

يـا أرض ويـحـك أكـرهـيـه فـإنـه
لـم يـبـق لـلعـتـكـي فـيـه خـريـب

(١) نفستهم: حسدتهم عليَّ.
(٢) السجام (بالكسر): سيلان الدمع. (الأغاني ج٣ ص ٢٣٦).

أبهى على خشب المنابر قائما
يوماً وأحزم إذ تشب حروب
غلب العزاء على ابن حفص والأسى
إن العزاء بمثله مغلوب
إذ قيل أصبح في المقابر ثاوياً
عمر وشق لواؤه المنصوبُ
فظللت أندب سيف آل محمد
عمرا وعزّ هنالك المندوب
فعليك يا عمر السلام فإننا
باكوك ما هبّت صَبا وجنوب(١)

إن صدق الرثاء عند بشار ليبدو بأجل مظاهره في هذه الأبيات وما ذاك إلا لأن المرثي كان على المستوى المطلوب حتى تهتز مشاعر شاعرنا فيبدع بهذه الصور الجميلة للرثاء الصادق المنبعث من أعماق النفس.

(١) البيان والتبيين ص ٣١٤ ج٢ . والمهلب بن أبي صفرة قائد مشهور بالشجاعة والإقدام ولي إمارة السند في أيام المنصور

الفخر

لما سأل المهدي بشاراً فيمن يعتد قال: أما اللسان والزي فعربيان، وأما الأصل فعجمي ثم قال شعراً:

ونبئت قوماً بهم جنة
يقولون من ذا وكنت العلمْ
ألا أيها السائلي جاهداً
ليعرفني أنا أنفُ الكَرَمْ
نمت في الكرام بني عامر
فروعي وأصلي قريش العجم
فإني لأغني مقام الفتى
وأصبي الفتاة فما تعتصم[1]

يفتخر بشار أولاً بنفسه، فهو علم ظاهر، وهو أنف الكرم. لكنه يستدرك بعد ذلك ليقول: ان الكرم الذي يتمتع به مستمد من انتمائه إلى بني عامر، ومن أصوله إلى قريش العجم. ويستمد أخيراً فخره من ذات نفسه فهو شخصية محبوبة، تجتذب النفوس إليها حتى الفتيات الشريفات عندما يرونه يتخلين عن عصمتهن.

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٢٨.

وقال بشار يفتخر بولائه في قيس:

أمنت مضرة الفُحَشَاء[١] أني
أرى قيساً تَضُرُّ ولا تُضَارُ

كأن الناس حين تغيب عنهم
نبات الأرض أخطأه القطارُ[٢]

وقد كانت بتدمر خيلُ قيس
فكان لتدمُرٍ فيها دمارُ

بحيٍّ من بني عيلان شوسٍ[٣]
يسير الموت حيث يقال ساروا

وما نلقاهمُ إلا صددنا
بريٍّ منهمُ وهم جِرارُ[٤]

يبرىء الشاعر نفسه من كل جهالة، أو طيش، أو سيئة في خُلُق بعد انتمائه لقيس، فهو واحد من أفرادها، وعليه أن يتحلى بصفاتهم المثالية، ثم يتحدث عن هذه القبيلة، فإذا تضر أعداءها، ولا يستطيعون ضرها، وهي للناس من حيث المنفعة والخير، كالمطر الذي يهطل على الأرض فينعشها.

---

(١) الفحشاء: جمع فاحش كجاهل وجهلاء. والفاحش السيء الخلق.

(٢) القطار: جمع قطر وهو المطر.

(٣) شوس: جمع أشوس وهو الذي ينظر بمؤخرة عينه.

(٤) حرار: جمع حران وهو الشديد العطش (الأغاني ج٣ ص ١٣٩ والديوان ص ١١٠).

وإذا ما غابت عن الناس افتقدوا خيرها، كما تفتقد الأرض خير المطر.

ولهذه القبيلة معارك مشرفة مع أعدائها، فهي بالأمس خاضت معارك مع تدمر فدخلتها خيولها ودمرتها تدميراً. وبنو عيلان الذين هم من قيس أبطال شجعان يسير الموت تحت سيوفهم فأينما حلوا حلَّ الموت. وهؤلاء القوم يرتوون من دماء أعدائهم، بينما يبقى أولئك عطاشى يموتون وهم ظمأى.

وقال يفتخر بولاء بني عقيل:

إنني من بني عُقَيل بنِ كعب
موضع السيف من طُلى[1] الأعناق

بشار ينتمي إلى بني عُقَيل بن كعب وليس من سائر جسم تلك القبيلة، بل من أشرف مكان فيها وهو عنقها.

ومن فخره في بني عامر قوله:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة
ذرى منبر صلى علينا وسلّما[2]

(١) الطلي: أصول الأعناق؛ واحدتها طلية أو طلاة (الأغاني ج٣ ص ١٣٩).
(٢) الأغاني ج٣ ص ١٦٣.

فهو يفتخر بانتمائه إلى مضر باشد ما يكون الافتخار والعصبية القبلية، وبشار بأسلوبه الخطابي هنا يذكرنا بموقف عمرو بن كلثوم وهو يفتخر على عمرو بن هند في الجاهلية بعد أن قتله، وفي هذا الأسلوب من الافتخار تتمثل المبالغة، والإفراط في التشبيه.

الحكمة

ككل شاعر اختبر الحياة، وعايش الناس وحكامهم على اختلاف آرائهم ومشاربهم، كان لا بد لبشار من أن يكون له رأي فيما رأى وعايش، يأتي بقالب حكمي يكون خلاصة لتجربته وتعبيراً عما جرى له.

فحول الصداقة والصديق، وما يجب أن يجري بينهما من تعايش وتفاهم يقول بشار:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبُهْ
فعش واحداً أو صِلْ أخاك فإنه
مقارف[1] ذنب مرة ومجانبُهْ
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربُهْ[2]

يقول بشار ان المرء إذا كان معاتباً صديقه على كل تصرف يقع فيه خطأ، فإنه لن يجد في حياته من لا يعاتبه، وهو

---

(١) مقارف: مخالط.

(٢) الأغاني ج٣ ص ٢٣٧.

في هذه الحالة أمام أمرين: إما أن يعيش وحيداً، وهو في هذه الحالة يتجنب أخطاء الناس، ولكنه يعيش مرارة الوحدة ووحشتها، وإما أن يعايش الناس، وفي هذه الحالة عليه أن يتقبل تصرفاتهم المصيب منها والخاطىء، وعليه أن يستعد لشرب مرارة الحياة، لأنه ليس في هذه الدنيا من تصفو مشاربه، ولا تعكرها صروف الدهر.

ومما قاله بشار في المشورة وهو في غاية الحكمة:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعِنْ
بـرأي نصيح أو نصيحة حازِمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فإن الخوافي قوةٌ للقوادم
وما خيرُ كفٍّ أمسك الغُلُّ(1) أختها
وما خير سيف لم يؤيَّدْ بقائم
وخلِّ الهوينا للضعيف ولا تكُنْ
نؤوماً فإن الحزم ليس بنائِمِ
وحارِبْ إذا لم تُعْطَ إلا ظلامة
شبا الحرب خيرٌ من قبول المظالِمِ

وعن المازني قال: سمعت أبا عبيدة يقول: ميمية بشارٍ هذه أحب إلي من ميميتي جرير والفرزدق(2).

---

(1) الغُل بالضم: الحديدة التي تجمع بين يد الأسير وعنقه، وتسمى الجامعة.
(2) الأغاني ج٣ ص ١٥٧ - ١٥٨ ونكت الهميان ص ١٢٧ ومرآة الجنان ج١ ص ٣٥٣.

المشورة في رأي بشار ضرورة لايستغنى عنها عند ضيق المواقف، وهنا على المرء أن لا يتأخر عن التوجه إلى رأي ناصح مخلص، أو نصيحة من عرف عنه الحزم في المواقف، وفي حالة الشورى لا يتوهم المرء أنه يقترف عملاً غير لائق، بل على العكس من ذلك فإن المشورة تكشف له ما يخبىء له القدر من مفاجآت، فتكون عوناً له على تحمل ما سيأتي. ولا يتوهمن المرء صواب بعض الأمور التي قد تكون في غير محلها؛ فليست كل يد قد غلت بالحديد هي كريمة، وليس كل سيف بغير قائم هو خير السيوف. وينصح بشار الإنسان بأن عليه أن يترك حالة الهوان والضعة للضعيف، وأن لا ينام على الأمور الخطيرة، بل عليه أن يكون دائم الاستعداد والحزم في اتخاذ المواقف، لأن الحزم لا يعرف النوم، وعلى المرء أن يسل سيفه لأخذ حقه لأن الحياة علمته أن الحرب والقتل والموت خير من العيش تحت ظل الظالم.

وقال في الحكم:

واستغن بالواجبات عن ذهبٍ
لم يبق قبلك لامرىء ذهبُهْ
يرد الحريص على متالفه
والليث يبعث حينه كلبُهْ
عيُّ الشريف يشين منصفه
وترى الوضيع يزينه أدبُهْ

والصــدق أفضــل مــا حضــرت بــه
ولــربــمــا ضــرَّ الــفــتــى كــذبُــهْ
خــذ مــن صــديقــك غيــر متعبــه
إن الــجــواد يــؤوده تــعــبُــهْ
زيــن الــمــلابس حــيــن يــلبــسـهـا
وإذا تــسـلّب ذاتــه سَــلَبُــهْ
وقـضيـت مـن ورق الـشبــاب هـجـا
مــن كــل أمــر راجــع قــصــبــه[1]

يقف بشار في هذه الأبيات موقف الواعظ المرشد فيوجه حديثه إلى من يمتلك المال فيقول له عليك باستغلال هذا المال في مواضعه حتى يستفيد الناس منه واعلم أنك زائل. وأن المال سيزول معك حين يوزع على الورثة فينفقونه بغير حساب لأنهم لم يتعبوا بجمعه. وأما البخيل الذي يحرص على ماله من التلف فهو يحمي تلك الأموال لا ليتمتع بها بل ليتمتع بها سواه وهو في تصرفه كمن يحل الكلب محل الأسد ويرجو منه صيداً كصيده والشريف يعيبه ما يخطىء في تصرفاته، بينما الوضيع يرفع من شأنه حسن أدبه وأما الصدق أفضل الفضائل لأن به ينجو الإنسان وبالكذب يهلك.

وينصح بشار الإنسان بأن يكون لطيفاً في تعامله مع أخيه الإنسان، وأن لا يرهقه بكثرة المطالب التى قد يعجز عن القيام

---

(١) الديوان ص ٤٩.

بها، فالكريم من عادته أن يتحمل حتى ما هو فوق طاقته والإنسان كذلك يتزين بما يرتديه، فإذا كان اللباس جميلاً كان اللابس جميلاً أيضاً. وأما إذا سلب ذلك اللباس، فيكون الإنسان في منقصه وخذلان.

وأخيراً يبشر بشار الإنسان بأنه قد قضى من عمره ما هو الأحسن والأفضل، وأن ما بقي منه يجب أن يستغل في عمل الخير.

الفصل الرابع
شعر بشار في ميزان النقد الأدبي

وقف كثيرون من النقاد قدماء ومحدثون على شعر بشار بن برد يتدارسونه، ويبدون الرأي فيه، وإن كان أغلبهم يجمع على مقدرة الشاعر الفنية في استخراج الصور البيانية البديعة، وإنشاء الحوار الجميل بينه وبين من يخاطب رغم آفة العمى التي ابتلي بها. وقد برر بشار هذا الإبداع عندما سُئِل عن سر إبداعه في قوله:

كــأن مــثــار الــنــقــع فــوق رءوســنــا
وأسـيـافـنـا لـيـل تـهـاوى كـواكـبـه

وأن هذا القول هو من أحسن التشابيه فمن أين له هذا ولم ير الدنيا قط، ولا شيئاً فيها فقال: إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب، وتقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه، وتذكو قريحته؛ ثم أنشدهم قوله:

عـميـت جنيـنـاً والـذكـاء مـن الـعـمـى
فـجئـت عـجـيـب الـظـن لـلعـلم موئـلا
وغـاض ضـيـاء الـعـيـن لـلعـلم رافـداً
لـقـلـب إذا مـا ضـيـع الـنـاس حـصـلا

وشعـر كنـوز الـروض لاءمـت بينـه
يـقـول إذا مـا أحـزن الشـعـر أسـهـلا

وكان الأصمعي يقول: بشار خاتمة الشعراء. والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم

ولما قيل لأبي عمرو بن العلاء من أبدع الناس بيتاً، فقال الذي يقول:

لـم يـطل لـيلي ولـكـن لـم أنـم
ونفى عـني الـكـرى طـيـف ألـم
روِّحـي عـنـي قـلـيـلاً واعـلـمي
أنـني يـا عـبـد مـن لـحـم ودم[1]

ومن اختلاف الأذواق في النظر إلى الشعر أنه بينما ترى أبا عمرو بن العلاء يؤثر بشـارا لهذه الأبيات، ويروقه منها حسن معنى، وجودة صوغ، ترى القاضي الجرجاني يقول في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه ما نصه: ومن النقض الظاهر قول بشار:

لـم يـطل لـيلي ولـكـن لـم أنـم
ونـفى عـنـي الـكـرى طـيـف ألـم

فقال لم أنم، ثم زعم أن الطيف ألم به، وهو لا يلم إلا بنائم.

(١) الأغاني ج٣ ص ١٤٢، ووفيات الأعيان ج٣ ص ٢٦ طبعة أولى وأخيرة وتاريخ بغداد ج١ ص ١١٤.

لكننا نرى أن لبشار من هذه المؤاخذة مخلصاً، فإن خيال المحبوب يتمثل للمحب في حالي نومه ويقظته، وسكونه وحركته، وكما يراه بعين بصره يراه بعين بصيرته[1].

ولما قيل لأبي عمرو بن العلاء أيضاً من أمدح الناس؛ قال: الذي يقول:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى
ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى
أفدت وأعدائي فأتلفت ما عندي

قال: فمن أهجى الناس؟ قال: الذي يقول:

رأيت السهلين استوى الجود فيهما
على بعد ذا من ذاك في حكم حاكم
سهيل بن عثمان يجود بماله
كما جاد بالوجعا سهيل بن سالم

قال ويحك هذه الأبيات كلها لبشار[2].

---

(١) وفيات الأعيان ج٣ ص ٣٩ ـ ٤٠ أنظر الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص ٤٤٢ وعن هذا البيت قال أبو هلال العسكري هو من أحسن ما قيل عن العلة التي يستطال لها الليل وهو السهر (ديوان المعاني ج٢ ص ٣٤٩).

(٢) وفيات الأعيان ج٣ ص ٣٢ طبعة أولى وأخيرة والأغاني ج٣ ص ١٥٠ ـ ١٥١.

وقال ابن المعتز: كان بشار أستاذ أهل عصره من الشعراء غير مدافع. ويجتمعون إليه وينشدونه، ويرضون بحكمه.

وتشبيهاته ـ على أنه أعمى لا يبصر ـ من كل ما لغيره أحسن ومن ذلك قوله: كأن مثار النقع[1].

ويقول ابن المعتز أيضاً: كان بشار يعد في الخطباء، والبلغاء، ولا أعرف أحداً من أهل العلم والفهم دفع بفضله، ولا رغب عن شعره، وكان شعره أنقى من الراحة، وأصفى من الزجاجة. وأسلس على اللسان من الماء العذب. ومما يستحسن من شعره وإن كان كله حسناً.

يا قوم أذني لبعض القوم عاشقة

وهذا معنى بديع لم يسبقه إليه أحد.

ومما يستحسن من شعره أيضاً وهو المعنى الذي لم يسبق إليه:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم
ونفى عني الكرى طيف ألم

ومما يستحسن من شعره رائيته العجيبة البديعة المعاني الرفيعة المباني:

---

(٢) طبقات الشعراء ص ٢٦.

رأيت صحابتي بخناصرات
حمولاً بعدما متع النهارُ[١]

فكاد القلب من طرب اليهم
ومن طول الصبابة يستطارُ

وفي الحي الذين رأيت خود
خلوب الدُّلِّ آنسه نوارُ[٢]

برود العارضينَ كان فاها
بعيد النوم عانقه عقارُ[٣]

كأن فؤاده كُرَةٌ تنزى
حذار البين لو نفع الحذارُ

يروعه السرار بكل شيء
مخافة أن يكون به السِّرارُ[٤]

وود الليل زيد إليه ليل
ولم يخلق له أبداً نهار

---

(١) خناصرات: بليدة من أعمال حلب تحاذي قسرين نحو البادية (معجم البلدان).

متع النهار: ارتفع أو بلغ غايته.

(٢) خود: في الأصل: خوذ.. حلوب. والنوار: كسحاب المرأة النفور من الريبة.

(٣) العارض: السن التي في عرض الفم بين الثنايا والأضراس.

(٤) السرار: المسارة. وشرح الأبيات في اللسان ج٢ ص ١٩٢ والكامل للمبرد ص ٧٦٠.

جفت عيني عن التغميض حتى
كأن جفونها عنها قصار[١]

ومن غزله الطيب الحسن المليح قوله:

يا منية القلب إني لا أسميك
أكني بأخرى أسميها وأعنيك
يا أطيب الناس ريقاً غير مختبر
إلا شهادة أطراف المساويك
قد زرتنا زورة في الدهر واحدة
فأثني ولا تجعليها بيضة الديك
يا رحمة الله حلي في منازلنا
حسبي برائحة الفردوس من فيك[٢]

ومن بدائعه قوله:

وخريدة سود ذوائبها
قد ضمخت بالمسك والورس[٣]
أقبلن في رأل الضحاء بها
فسترن عين الشمس بالشمس[٤]

وقال ابن قتيبة في الشعر والشعراء عن بشار: «وبشار أحد المطبوعين الذين كانوا لا يتكلفون الشعر، ولا يتعصبون،

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٩٣، وجعلها المبرد من شعره الحسن.
(٢) رحمة الله جارية كانت بالبصرة أنظر ثمار القلوب ص ٤.
(٣) الخرد الفتاة بقيت عذراء.
(٤) طبقات الشعراء ص ٣١.

وهو من أشعر المحدثين»[1].

وقال البكري في سمط اللآلي عن بشار: «وهو أشعر المحدثين، ورأس المطبوعين غير المتكلفين». وفي زهر الآداب يقول القيرواني: «قيل لبشار بن برد: بم فقت أهل عمرك، وسبقت أهل عصرك، في حسن معاني الشعر، وتهذيب ألفاظه؛ فقال: لأني لم أقل ما تورده علي قريحتي، ويناجيني به طبعي، ويبعثه فكري، ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعادن سبرها، وانتقيت حرها، وكشفت عن حقائقها. واحترزت من متكلفها ولا والله ما ملك قيادي قط الإعجاب بشيء مما آتي به».

وكان بشار بن برد خطيباً شاعراً، راجزاً، سجاعاً، صاحب منثور مزدوج وفي آمالي المرتضى أن بشاراً كان مقدماً في الشعر جداً حتى إن كثيراً من الرواة يلحقه بمن تقدم عصره عليه من المجودين، فهذا المرزباني يقول: «قيل لأبي حاتم، من أشعر الناس قال: الذي يقول:

ولها مبسم كغر الأقاحي
وحديث كالوشي وشي البَرُودِ
نزلتْ في السواد من حبة القلـ
ـلب ونالت زيادة المستزيدِ
عندها الصبر عن لقائي وعندي
زفرات يأكلن صبر الجليدِ

(١) زهر الآداب ج١ ص ١٥١ والبيان والتبيين للجاحظ ج١ ص ٢٠.

يعني بشاراً. قال: وكان يقدمه على جميع الناس[1].

وقال المرزباني عن علي بن هارون عن أبيه قال: من بارع شعر بشار قوله يصف جارية مغنية. قال علي: وما في الدنيا شيء قديم ولا محدث من منثور ولا منظوم في صفة الغناء واستحسانه مثل هذه الأبيات:

ورائحةٍ للعين فيها مخيلة
إذا برقت لم نسق بطن صعيدِ[2]
من المستهلات الهموم على الغنى
خفا برقها في عُصفُر وعقودِ[3]
حسدت عليها كل شيء يمسها
وما كنت لولا حبها بحسودِ

---

(١) أمالي المرتضى ج١ ص ١٤٠ ـ ١٤١ والأغاني ج٣ ص ١٨٧ وزهر الآداب ج٢ ص ٤٧٠.

وقال الجاحظ في البيان والتبيين أن بشاراً بلغ من حقائق الأمور ما لا يبلغه تمييز البصير في قوله:

وخذي ملابس وزينة
ومصبغات فهي أفخرْ
وإذا دخلتي تقنعي
بالحمر إن الحسن أحمرْ

(البيان والتبيين ج٢ ص ٢٠٢).

(٢) الأغاني ج٣ ص ١٨٩ والمختار من شعر بشار ص ٣٠٩.

الرائحة: السحابة تروح. والمخيلة: علامة المطر.

(٣) المستهل: السحاب إذا أمطر. وخفي البرق: ظهر ولمع وأراد بالصفر: الثياب المصفرة.

وأصفر مثل الزعفران شربته
على صوت صفراء الترائب رودِ[1]
كأن أميراً جالساً في ثيابها
تؤمل رؤياه عيون وفودِ
من البيض لم تسرح على أهل ثلة
سواماً، ولم ترفع حداج قعودِ[2]
تميت به ألبابنا وقلوبنا
مراراً، وتحييهن بعد همودِ
إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى
صياح جنود وجهت لجنودِ
ظللنا بذاك الديدن اليوم كُلّه
كأنا من الفردوس تحت خلودِ
ولا بأس إلا أننا عند أهلنا
شهود، وما ألبابنا بشهودِ[3]

ومن المدح البارع قول بشار:

ألا أيها الطالب المبتغي
بخدم السماء بسعي أمَمْ
سمعت بمكرمة ابن العلاء
فأنشأت تطلبها لست ثَمْ

(١) رود: ناعمة.

(٢) الثلة: قطعة من الغنم والسوام: الإبل السائحة. والحداج: جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء.

(٣) الديوان ص ١١١ - ١١٢.

إذا عـرض الـهـم فـي صـدره
لـهـا بـالـعـطاء وضـرب الـبُـهُـمْ
فـقـل لـلخـلـيـفـة إن جـئـتـه
نـصـيـحـاً ولا خـيـر في الـمتـهـمْ
إذا أيـقـظتـك جـسـام الأمـور
فـنـبـه لـهـا عـمـراً ثـم نَـمْ
فـتـى لا يـبـيـت عـلى دمـعـة
ولا يـشـرب الـمـاء إلا بِـدَمْ
يـحـب الـعـطاء وسـفـك الـدمـاء
فـيـغـدو عـلى نَـعَـم أو نِـعَـمْ(١)

فممدوح بشار يجمع بين الشجاعة الخارقة والكرم الذي لا حـدود له، ولهـذا تعيش رعيته في مـأمن من الخوف أو الجوع، فهو يدافع عنها من شر الأعداء، وهو يبذل لها العطايا لتكون مستقرة مادياً ومعنوياً.

ومما لم يجىء في معناه مثله قول بشار:

تـركـتـنـي صـبـاً فـحـركـت الـبـا
ب هـدواً فـارتـعـت مـنـه ارتـيـابـا
فـكـأنـي سـمـعـت حـسَّ حـبـيـب
نـقـر الـبـاب نـقـرة ثـم هـابـا(٢)

---

(١) ديوان المعاني ج١ ص ٥٩ - ٦٠.
(٢) ديوان المعاني ج٢ ص ٤٧.

أي شيء أبدع من هذا الربط بين حركات الأشياء، حركة الهواء الهادىء يأتي خلسة لا يشعر به أحد إلا وهو يدغدغ الجسم ببرودته فينعش النفس، وحركة الزائر الحبيب الخائف الذي أوجس خيفة من عيون المراقبين، فتسلل خلسة إلى عند من يحب ليبعث هو أيضاً الانتعاش في النفس الظمأى للحب.

ومن بديع حسن الاستعارة في صفة الدمع قول بشار:

ماء الصبابة نار الشوق تحذره
فهل سمعتم بماء ضاق من نارِ(١)

ومن شعره وهو أغزل بيت قاله المولدون:

أنا والله أشتهي بحْرَ عينيك
وأخشى مصارع العشاق(٢)

ومن الربط الجميل بين عناصر الأشياء قول بشار:

وبيضاء يضحك ماء الشبا
ب في وجهها لك إذ تبتسمْ
دوار العذارى إذا زرنها
أطفن بحوراء مثل الصَّنمْ
يَرُحْن فيمسحن أركانها
كما يمسح الحجر المسْتَلم

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٧.

(٢) وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٢ طبعة أولى وزهر الآداب ج٢ ص ٤٧١ كان أبو تمام يقول: ما رأيت شعراً أغزل منه.

أصـفـراء ليس الـفـتـى صـخـرة
ولـكـنـه نُـضْـب هَـمٍّ وغـم
صـبـبـتِ هـواك عـلى قـلبـه
فـضـاق وأعـلن مـا قـد كَـتَـمْ(١)

فوجه معشوقة بشار عندما تبتسم تلوح عليه نضارة الشباب وماؤه، وهي تتهافت عليها قلوب المحبين، كما يتهافت الناس على الحجر الأسود، وكل يريد مصافحتها أو لمسها للتبرك منها، كما يسعى الحجاج للتبرك من الحجر في الكعبة. ثم يذكر بشار هذه الفتاة بقوله ان الحجر إذا لم يتأثر بمشاعر الناس وأحاسيسهم، فإنها هي يجب أن تتأثر حتى لا تصاب قلوب المحبين بالهم والغم.

وبشار يغوص على المعاني فينتقي منها ما يلائم مقتضى الحال بعد كد الفكر وشحذ الذهن، فيأتي الشعراء ويأخذون معانيه ويلبسونها حلة غير حلته، وكان هذا يدفع ببشار إلى الغضب، لأنه يعتبر معانيه ملكه الخاص، ومن يتعدى عليها كالسارق تماماً يجب القصاص منه ألم نسمع قصته مع سلم الخاسر، وقد غضب عليه مع أنه كان من تلامذته ورواته لأنه سرق من معانيه. وكيف دخل الوسطاء بينهما ليصفح بشار عن ذنب سلم ويرضى عنه وكيف انتفض قائلاً: أين ابن الخبيثة؟ قالوا: ها هو ذا؟ فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه وقال: يا أبا معاذ، خريجك وأديبك؟ فقال: يا سَلْمُ، من الذي يقول:

---

(١) زهر الآداب ج٢ ص ٤٧١.

من راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات الفاتك اللَّهِجُ

قال: أنت يا أبا معاذ، جعلني الله فداك! قال: فمن الذي يقول:

من راقب الناس مات غمًّا
وفاز باللذة الجسورُ

قال: خريجك. قال: أفتأخذ معانيَّ التي قد عنيت بها، وتعبت في استنباطها، فتكسوها ألفاظاً أخف من لفظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري! لا أرضى عنك أبداً قال: فما زال يتضرع إليه، ويشفع له القوم حتى رضي عنه(١).

ولم يكن سلم الخاسر هو الوحيد الذي أخذ عن بشار، بل هنالك الكثيرون ومنهم الفحول من الشعراء أمثال أبي نواس الذي احتذى ببشار في وصف ترك الشراب وطاعته لأمر الأمين مثال بشار بن برد، وصب على قالبه(٢).

ومن الذين أخذوا معانٍ عن بشار ابن الشحنة فقد أخذ المعنى الذي يقول فيه بشار:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٢) زهر الآداب ج٢ ص ٤١٨.

فقال في قصيدة يمدح بها السلطان صلاح الدين:

وإنـي امـرؤ أحببتكم لمكارم
سمعت بهـا، والأذن كالعين تعشق[1]

وقال أبو نواس متغزلاً:

حليت والحسن تأخذه
تنتقي منه وتنتخبُ
فاكتست منه طرائفه
واستزادت فضلَ ما تهبُ[2]

وقال عبد الله بن مصعب:

كأنك جئت محتكماً عليهم
تخير في الأبوة ما تشاء

فأحد البيتين هو الآخر في المعنى، وإن كان أحدهما يتخير الحسن والآخر الأبوة، وإنما هما من قول بشار:

خلقت كل ما في غير مخير
هواي ولو خيرت كنت المهذبا

ثم تناوله أبو تمام فأخفاه فقال:

ولو صورت نفسك لم تزدها
على ما فيك من كرم الطباع[3]

---

(١) وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٢ ـ ٢٣ ط ١.

(٢) الديوان ص ٢٣٩ والوساطة للجرجاني ص ٢٠٥.

(٣) الوساطة للجرجاني ص ٢٠٥.

هذه القدرة على ابتكار المعاني وحسن الإبانة في الألفاظ، والرأي الثاقب في مواقع الكلام هي التي جعلت بشاراً يعتد بنفسه، ويقول لمن قال له: إني أنشدت فلاناً قولك:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فقال لي: ما كنت أظنه إلا لرجل كبير، فقال بشار: «ويلك! أفلا قلت له: هو والله لأكبر الجن والإنس»[1].

فبشار أزعجه تجاهل ذلك الرجل له مع يقينه الثابت أن شعره شاع في الآفاق، ومنه شاع ذكره، حتى أصبح أكثر العلماء في عصره يستشهدون بشعره، ويقدمونه كدليل على صحة ما يقولون كلما أعوزتهم الحاجة إلى ذلك.

فقد ذكر الأصمعي أن خلفاً الأحمر، وخلفاً بن أبي عمرو بن العلاء، كانا يأتيان بشاراً ويسلمان عليه بغاية التعظيم ثم يقولان: يا أبا معاذ؛ ما أحدثت، فيخبرهما وينشدهما ويسألانه، ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الظهر ثم ينصرفان عنه، فأتيا يوماً فقالا له: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة؛ قال: هي التي بلغتكما؟ قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب؟ فقال: نعم، بلغني أن سلماً يتباصر

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٥٤.

بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه؛ قالا: فأنشدناها. فأنشدهما:

بَكِّرا صاحبي قبل الهجير
إن ذاك النجاح في التبكير

حتى فرغ منها؛ فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ (مكان إن ذاك النجاح) بكرا فالنجاح في التبكير.

كان أحسن؛ فقال بشار: بنيتها اعرابية وحشية، فقلت: «إن ذاك النجاح» كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: «بكرا فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة؛ فقام خلف فقبل بين عينيه»(١).

فبشار بن برد أعجب خلفاً الأحمر الراوية الشهير لأشعار العرب في استخدامه الجيد لمصطلحات اللغة، ومعرفة مواطن الجودة فيها. وقد يكون خلفاً الأحمر قد حاول امتحان بشار في كلامه لمعرفة خبرته، فلما تأكد له ذلك اندفع يقبله إعجاباً وتقديراً له.

ولم يكن خلف الأحمر وحده الذي اندهش من بلاغة بشار، فهذا أبو زيد هو الآخر يظهر اندهاشاً أكبر عندما سأله أبو حاتم عن معنى بيت الشعر الذي قاله بشار في هجاء ديسم العنزي لأنه كان يروي شعر حماد عجرد دون شعر بشار.

(١) الأغاني ج٣ ص ١٩٠.

آديسبم يا بن الذئب من نحل زارع
أتروي هجائي سادراً غير مُقْصِر

فقال أبو زيد: لمن هذا الشعر؟ فقلت: لبشار يقوله في ديسم العنزي؛ فقال:

قاتله الله ما أعلمه بكلام العرب! ثم قال: الديسم: ولد الذئب من الكلبة، ويقال للكلاب: أولاد زارع[1].

إن هذه القدرة على تملك ناصية اللغة عند بشار هي التي جعلت منه ناقداً فذاً للشعر لعلمه الدقيق في مواطن الجمال فيه، ولهذا نراه يمتلك حاسة شديدة نحو ذلك الشعر حتى معرفة صاحبه الحقيقي إن التبس الأمر على سواه في تلك المعرفة، كما حدث في إنكاره لبيت شعر أن يكون للأعشى وقد نسب إليه.

قال أبو عبيدة: سمعت بشاراً يقول وقد أنشد من شعر الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكرتْ
من الحوادثِ إلا الشيب والصلعا

فأنكره بشار، وقال: هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى، فعجبت لذلك فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت جالساً عند يونس، فقال: حدثني أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى.

(١) الأغاني ج٣ ص ١٥٢.

فجعلت حينئذٍ أزداد إعجاباً من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر[1].

وأنشد شعراً لشاعر:

وقد جعل الأعداء ينتقصوننا
وتطمع فينا ألْسُنٌ وعيونُ
ألا إنما ليلى عصا خيزرانة
إذا غمزوها بالأكف تلينُ

فقال بشار: والله لو زعم أنها عصا مخ أو عصا زُبد، لقد كان جعلها جافية خشنة بعد أن جعلها عصا! ألا قال كما قلت:

ودعجاء المحاجر من مَعَدٍّ
كأن حديثها ثمر الجنانِ
إذا قامت لمشيتها تثنت
كأن عظامها من خيزرانِ[2]

والفرق بين ما أتى به بشار في غزله وما أتى به الشاعر لا يخفى على أحد أوتي سلامة الذوق، وحسن الإدراك، ودقة التمييز.

فأعضاء الإنسان هي التي تشبه في ليونتها بالخيزران لا الإنسان نفسه، ثم إننا لم نسمع قط بأن الأكف يفخر بها، فالصفة بين المشبة والمشبه به بعيدة.

وخبرته الدقيقة في الشعر، وفي صفاته ومميزاته هي التي

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٥٤.

جعلته لا يصنف الكميت بن زيد الأسدي بين الشعراء، وعندما قيل له كيف لا يكون الكميت شاعراً وهو الذي يقول:

أنصف امرىء من نصف حي يسبني
لعمري لقد لاقيت خطباً من الخطب
هنيئاً لكلب إن كلباً يسبني
وإني لم أردد جواباً على كلبِ

فقال بشار: لا بل شانئك، أترى رجلاً لو ضرط ثلاثين سنة لم يستحل من ضرطه ضرطة واحدة(١).

وقال مروان بن أبي حفصة لما قلت قصيدتي (طرقتك زائرة في خيالها) قصدت باب الخليفة فجعلت طريقي على البصرة، فمررت ببشار فأنشدته إياها فقال: أحسنت. أنت أشعر من الأعشى في قصيدته التي على رويها. وقال ابن سلام: سألت بشاراً العقيلي عن الثلاثة (يعني جريراً والفرزدق والأخطل). فقال: لم يكن الأخطل مثلهما. لكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه. قلت: فجرير والفرزدق. قال: كان جرير يحسن ضروباً من الشعر لا يحسنها الفرزدق، وفضل جرير عليه(٢).

هذه المعرفة الواسعة التي امتلكها بشار جعلت كبار النقاد القدامى يثنون عليه ويفضلونه على شعراء عصره، ويوازونه بكبار الشعراء ما قبل عصره.

---

(١) الأغاني ج٣ ص ٢٢٥.

(٢) الموشح للمرزباني ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

فابن رشيق القيرواني جعله أول من فتق البديع من المحدثين مع ابن هرمة. وجعله في مرتبة الأعشى حين قال: سمعت أبا عبد الله غير مرة يقول: إنما سمي الأعشى صناجة العرب لقوة طبعه، وحلية شعره، يخيل لك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك. ومثله من المولدين بشار بن برد أنشد أقصر شعره عروضاً وألينه كلاماً فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع، وقد أشبهه تصرفاً وضرباً في الشعر وكثرة عروض مدحاً وهجاءً وافتخاراً، وتطويلاً[١].

أما الجاحظ فقد جعل بشاراً أول المطبوعين على الشعر من المولدين، وقال: ولم يكن في المولدين أجود بديعاً من بشار وابن هرمة[٢].

وأما الجرجاني في معرض حديثه عن أصناف الشعراء يقول عن بشار: فإذا انتهى إلى من بعدهم: كبشار وأبي نواس وطبقتهم يجيء شعرهم ملحاً وطرفاً، واستحسن منه البيت استحسان النادرة، وأجراه مجرى الفكاهة[٣].

ومن الشعر الذي استحسنه له جعل بشار الموت يموته بقوله:

وما أنا إلا كالزمان فإن صحا
صحوت وإن مات الزمان أموت

---

(١) العمدة ج١ ص ١٣١.

(٢) البيان والتبيين ج٢ ص ٣٠.

(٣) الوساطة ص ٤٩.

وقوله:

فـإن مـاريتني فـاركب حصـانـاً
ومثـله تـخـر لـه صـريـعـا

وقوله:

وكـل مـكـان أتـاه الـفـتـى
على قـدر الـرجـل فيـه الخـطا

وهذه الأبيات من قلائده إلا أنك تعلم ما في قوله شيء من الضعف الذي يجتنبه الفحول ولا يرضاه النقاد[1].

وسئل الأصمعي عن بشار ومروان أيهما أشعر؛ فقال: بشار؛ فسئل عن السبب في ذلك، فقال: لأن مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق من تقدمه. وشركه فيه من كان في عصره، وبشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرد به. وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً، ومروان لم يتجاوز مذاهب الأوائل[2].

إن رأي أبي عبيدة، ورأي الأصمعي وإن اتفقا حول تفوق بشار على مروان بن أبي حفصة، إلا أنهما يختلفان في الأسباب حول ذلك التفوق، فأبو عبيدة يعتمد في حكمه على رأي بشار في تفضيل نفسه، ولم يحدد الموضوعات التي تفوق فيها بشار على مروان. في حين ذكر الموضوع الذي تفوق فيه

---

(١) الوساطة للجرجاني ص ١٨١.

(٢) الأغاني ج٣ ص ١٤٧ والموشح للمرزباني ص ٣٩١.

مروان على بشار وهو المدح. وأما الأصمعي فهو كان أكثر دقة في تفسير سبب أفضلية بشار على مروان وهي تصرفه في فنون أبدع فيها وأكثر، ثم جاء أكثر غزارة بكمية الشعر، وأوسع بديعاً، بينما كان مروان مقلداً لمن سبقه في فنه الذي اختاره وهو المدح.

ونحن نلاحظ بيسر كما يلاحظ غيرنا التعميم في الأحكام عند القدامى، وعدم الدقة في التجديد، وهذا ما يفقد رونق وقيمة النقد عند هؤلاء.

وقد قارن النقاد بشاراً بامرىء القيس والقطامي؛ فقد ذكر علي بن يحيى المنجم، أنه سمع من لا يحصى من الرواة يقولون: أحسن الناس ابتداءً في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول:

ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالي

وحيث يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وفي الإسلام القطامي حيث يقول:

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل

ومن المحدثين بشار حيث يقول:

أبى طلل بالجزع أن يتكلما
وماذا عليه لو أجاب متيما

وبـالـفـرع آثـار بـقـيـن وبـالـلوى
مـلاعـب لا يـعـرضـن إلا تـوهـمـا[1]

إن مخاطبة الطلل أمر مشترك بين الشعراء، ولكن عملية التفاعل مع ذلك الطلل تختلف اختلافاً بيناً بينهم. فامرؤ القيس والقطامي يلقون التحية على الطلل وعند كل واحد منهما اليقين بأن لا جواب عند الطلل لأنه أثر من الآثار، بينما نجد بشاراً، يتجاوز هذه النقطة ببعث الحياة في الطلل، وجعله ذا روح جدير بالمخاطبة ورد الجواب، ولكن الطلل حزين على من فارقه فلا يرد الجواب على من سأله. وهذه مأثرة نسجلها لبشار.

مأثرة ثانية نسجلها لبشار أيضاً هي أنه أدخل عنصر الخيال في البيت الثاني بشكل فعال، فبدلاً من أن يقول لنا ان ملاعب الأحبة قد ضاعت معالمها، استبدل هذه الصورة بصورة أخرى هي أنه علم أماكن الأحبة بعامل التوهم والتخيل وكأنه قد مارس فعلاً عملية الحب في تلك الربوع، وهو الذي لم يرها ولم يعرفها.

ومن المقارنات بين بشار وغيره من الشعراء ما رواه أبو حاتم عن الأصمعي أنه كان يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة

---

(١) اللوى في الأصل: منقطع الرحلة، وهو اسمع موضع بعينه. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: قد أكثر الشعراء من ذكره وخلطت بين ذلك والرحل فعزا الفصل بينهما، ثم قال وهو وادٍ من أودية بني سليم (الأغاني ج٣ ص ١٤٨) ومعجم البلدان لياقوت الحموي.

تصرفه، ويقول: كان مطبوعاً لا يكلف طبعه شيئاً متعذراً لا كمن يقول البيت ويحككه أياماً. وكان يشبه بشاراً بالأعشى والنابغة الذبياني، ويشبه مروان بزهير والحطيئة ويقول: هو متكلف.

وروى أبو حاتم عن أبي زيد في معرض مقارنته بين بشار بن برد ومروان بن أبي حفصة أنه قال: مروان أجدُّ وبشار أهزل، ولما سأل الأصمعي عن هذا الرأي قال: بشار يصلح للجد والهزل، ومروان لا يصلح إلا لأحدهما(١).

رأينا كيف يتناقض النقاد القدامى في آرائهم فمروان بنظر أبي زيد أكثر جدية من بشار، وبشار أكثر هزلاً. بينما يرى الأصمعي أن بشاراً جاد وهازل بينما مروان لا يصلح إلا ليكون إما جاداً أو هزلاً، وهذا أمر عجيب حقاً.

فالجدية أو الهزل عند الأصمعي أمر طارىء يمكن أن يتكيف معه الإنسان ساعة ما يريد بينما الحقيقة تقول غير ذلك، إذ أن الجد أو الهزل طبيعة أو سجية في الإنسان جبل عليها فنمت معه حتى أصبحت ميزة ظاهرة من مزاياه لا يمكن أن يتخلى عنها.

ولم يكن النقاد القدامى هم وحدهم المعجبين بشعر بشار بل كان هو أيضاً معجباً بنفسه متفاخراً بها أمام الناس. فعندما قيل له: ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٤٩.

فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه؛ قال: ومن أين يأتي الخطأ! ولدت ها هنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت، فمن أين يأتي الخطأ[1].

كما أن شهرة شعر بشار وانتشاره الواسع هي التي جعلت نجم بن النطاح يقول عنه: «عهدي بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة إلا ويروي من شعر بشار، ولا نائحة ولا مغنية إلا تتكسب به، ولا ذو شرف إلا وهو يهابه، ويخاف معرة لسانه»[2]

وكما رأينا الوجه الحسن لشعر بشار عند من ذكرنا من النقاد القدامى، نرى وجهاً آخر سيئاً عند بعضهم الآخر؛ فهذا إسحاق بن إبراهيم الموصلي المغني الشهير يرى أن بشاراً مختلف الشعر مضطربه، وأن الغث في شعره لا يعدله غث ولا رديء. وكان يقول: إن الذي يقول هذا الشعر لا يمكن أن يكون شاعراً مجيداً، وينشد:

إنـمـا عـظم سليـمى قـصـب
قصب السكـر لا عـظم الجمـلْ
فـإذا انـديـت مـنـهـا بـصـلاً
غلب المسـك على ريحِ البصـلْ

(١) المصدر نفسه ص ١٥٠.
(٢) الأغاني ج٣ ص ١٤٩.

ويعقب الموصلي على هذين البيتين بقوله: لو قال كل شيء جيد ثم أضيف إلى هذا لزيفهُ وكان يقدم عليه مروان ويقول: هذا هو أشد استواءً منه وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها[1].

وعن أحمد بن خلاد عن أبيه أنه قال لبشار: إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت قال وما ذاك، قال: قلت: بينما تقول شعراً يثير النقع، وتخلع به القلوب مثل قولك:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة
ذرى منبر صلى علينا وسلما

تقول:

ربابة ربة البيت
تصب الخلَّ في الزيت
لها عشر دجاجات
وديك حسن الصوت

فقال لكل وجه وموضع. فالقول الأول جد وهذا قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البيض من السوق وربابة لها عشر دجاجات وديك فهي تجمع لي البيض فهو عندها من قولي أحسن من قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل عندك[2].

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩٦.

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٣.

وكان الأخفش ليطغى على بشار في قوله:

الآن أقصر عن سمية باطعي
وأجال بالوجلى علي بشبر

وفي قوله:

على الغزلى مني السلام فربما
لهوت بها في ظل مخضرَّة زهْرِ[1]

وحدث قدامة بن نوح فقال: كان بشار يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التي لا حقيقة لها فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه:

غنني للغريض يا ابن قنان

فقيل له من ابن قنان هذا لسنا نعرفه من مغني البصرة، قال وما عليك منه ألكم قبله دين فتطالبوه به، أو ثأر تريدون أن تدركوه، أو كفلت لكم به فإذا غاب طالبتموني بإحضاره. قالوا: ليس بيننا وبينه شيء من هذا وإنما أردنا أن نعرفه، فقال: هو رجل يغني لي، ولا يخرج من بيتي، فقالوا له إلى متى قال: مذ يوم ولد إلى يوم يموت.

قال وأنشدنا أيضاً في هذه القصيدة:

«ووافاني هلال السماء في البردان»

فقلنا له: يا أبا مُعاذ أين البردان هذا لسنا نعرفه بالبصرة.

---

(١) الموشح للمرزباني ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

فقال: هو بيت في بيتي سميته البردان أفعليكم من تسميتي داري وبيوتها شيء فتسألوني عنه.

وعن جون العبدي راوية بشار قال: كنا عند بشار يوماً فأنشدنا قوله:

وجارية خلقت وحدها
كأن النساء لديها خدم
دوار العذارى إذا زرنها
أطفن بحوراء مثل الصنم
ظمئت إليها فلم تسقني
بري ولم تشفني من سقم
وقالت هويت فمت راشداً
كما مات عروة غماً بغم
فلما رأيت الهوى قاتلي
ولست بجار ولا بابن عم
دسست إليها أبا مجلز
وأي فتى إن أصاب اعتزم
فما زال حتى أنابت له
فراح وحل لنا ما حرم

فقال له رجل: ومن أبو مجلز هذا يا أبا معاذ؟ قال: وما حاجتك إليه لك عليه دين، أو تطالبه بطائلة. هو رجل يتردد

بيني وبين معارفي في رسائل. قال: وكان كثيراً ما يحشو شعره بمثل هذا[١].

ومن الألفاظ المستغربة التي كان يحشو بها بشار شعره لفظة (الشيفران) في قوله:

ولـهـا خـد أسـيـل
مـثـل خـد الـشـيـفـران

ولما سئل عن معنى الشيفران قال: ما يدريني هذا من غريب الحمار فإذا لقيته فاسأله[٢].

ومن شعره الغث الذي عير به قوله:

أحـبُّ الـخـاتـم الأحـمـ
ـر مـن حُـبِّ مـوالـيـه

فعندما سئل عن هذا البيت وعن البيتين الـذين يقول فيهما:

إن سـلـمـى خـلـقـت مـن قـصـب
قصب الـسـكـر لا عـظـم الـجـمـلْ
وإذا أدنـيـت مـنـهـا بـصـلاً
غلب المسـك على ريـح البصـل

غضب بشار وصاح: من الذي يقرعنا بأشياء كنا نعبث بها في الحداثة فهو يعيرنا بها[٣].

---

(١) الأغاني ج٣ ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٢.

(٣) الأغاني ج٣ ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

يبدو من الإجابات التي كان يجيبها بشار على أسئلة من سأله عن أبياته التي ظهر فيها الضعف أو السخف كما يحلو لبعضهم أن يطلق عليها يبدو بشار محرجاً في إجاباته، وراح يتذرع بأعذار تبدو أكثر سخفاً من الألفاظ التي حشى فيها أبياته. وإذا كانت الحقيقة محرجة، والاعتراف بها صعباً، فلا بأس أن يستظل المرء بخيالها، ويبرر نفسه بقول كما قال بشار: «من الذي يقرعنا بأشياء كنا نعبث بها في الحداثة فهو يعيرنا بها».

وكما نظر النقاد القدامى إلى شعر بشار وأدلوا بآرائهم فيه، فإننا نجد للنقاد المحدثين آراء في شعر بشار أيضاً.

فطه حسين يقول عنه: «وإذا قرأت شعر بشار، فلا ينبغي أن تبحث فيه شعوره وعواطفه، ولا عما يحس أو يؤمل؛ فيما بينه وبين نفسه، وإنما ينبغي أن تبحث فيه عما يريد أن يظهر، أو عما يريد أن يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل»[1].

ثم يستطرد طه حسين الحديث عن واقع الصدق أو التكلف في شعر بشار فيقول: ولعله (أي بشار) إن صدق إنما يصدق في موضعين اثنين من شعره: يصدق حين يهجو، لا أريد أنه يصف الناس بما فيهم، ويضع يده على مواضع العيب من أخلاقهم وسيرتهم، وإنما أريد أنه يصدق حين يهجو، لأنه

(١) حديث الأربعاء ج٢ ص ٢٠.

يصف نفسه. ويمثل سخطه على الناس، وما يضطره إليه هذا السخط الشديد من ألوان الإسراف والظلم، وضروب الاعتداء. ويصدق حين يذكر نفسه وسوء مكانه من الناس، وبنوع خاص حين يذكر حرمان الذين مدحهم إياه، وبخلهم عليه بما كان ينتظر[1].

وأما عن غزل بشار فيقول طه حسين: انه لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقاً. وإنما يمثل أمرين اثنين: يمثل تهالكاً على اللذة، وإفحاشاً في هذا التهالك وافتناناً فيه أيضاً، دون أن يراقب الشاعر في ذلك خلقاً، أو أدباً، أو ديناً، ولهذا كان يتخير إذا تغزل أيسر الألفاظ والأساليب، وأدناها وأشدها شيوعاً في النساء وفتيات الهوى.

والغريب أنك لا تجد بشاراً يسف في اللفظ إذا مدح، أو تعرض لفن من فنون الشعر إلا الغزل أو الهجاء؛ فهو إذا تغزل أراد أن يفهم الناس، وأن يكون شعره ذائعاً يتناقله الشبان، وأهل الخلاعة، وهو إذا هجا فقد كان يريد أن يؤذي من يهجو، وإنما يؤذيه إذا كان فاحشاً مقذعاً، وكان مع ذلك سهلاً يمكن فهمه وروايته[2].

أما شوقي ضيف فهو أيضاً له آراء كثيرة في شعر بشار؛ فهو يرى مثلاً: أن غزل بشار مزيج من الرقي العقلي الحديث،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٤.

والحضارة المادية التي تنفس فيها أنظر إليها يتغزل بعبدة فيقول:

لعبدة دار ما تكلمنا الدارُ
تلوح مغانيها كما لاح أسطارُ[1]
أسائل أحجاراً ونؤياً مهدماً
وكيف يجيب القول نؤي وأحجارُ[2]
وما كلمتني دارها إذ سألتها
وفي كبدي كالنِفط شبت به النار
وعند مغاني دارها لو تكلمت
لمكتئب بادي الصبابة أخبارُ

فهو هنا يقترب اقتراباً شديداً من القدماء حين يتحدث عن الأطلال والرسوم[3] لكنه يضمن أبياته كما قلنا سمات حضارية عندما يصف وجده بالنفط المشتعل، في البيت الثالث، وتشبيهه المغاني بسطور الكتابة من حيث زوال معالمها في البيت الأول.

ويقول شوقي ضيف أيضاً: «وقد دققت الحضارة حسه، وفتحت له في الغزل أبواباً من المعاني والصور التي تنم عن أثر

---

(١) مغانيها: منازلها المهجورة. أسطار: جمع سطر، يشبه المغاني بسطور الكتابة.

(٢) النؤي: حفرة يحفرونها حول الخيمة على شكل هلال تمنع عنها سيول الأمطار.

(٣) العصر العباسي الأول ص ٢١٦.

البيئة، وما شاع فيها من ترف مادي، وشعور رقيق حاد. ومما يمثل ذلك عنده من بعض الوجوه قصيدته التي يقول في مطلعها:

يا ليلتي تزداد نكرا
في حب من أحببت بكرا

ويرى أخيراً شوقي ضيف أن بشاراً تمسك بالتراث الغني وأصوله التقليدية، ومضى ينميه ويلائم بينه وبين حياته العقلية الخصبة، وما عاش فيه من حضارة مادية حف بها المجون، وظل محتفظاً للغة الشعرية بأساليبها الجزلة الرصينة. وقد يرق ويلين، ولكن دون أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن، وإذا كان يفقه أسرار اللغة فقهاً دقيقاً، وكل ما يتصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال[1].

وفي حديثه عن غزل بشار يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة: «ذلك أن بشاراً قد ترك لنا ديواناً ضخماً في التغزل متعدد المنازع والألوان، غزير المعاني، متنوع الأسلوب، بعضه يجري على النهج القديم، وبعضه الآخر جديد في وزنه وألفاظه وصياغته.

وغزل بشار ليس كله رقيقاً جميلاً، بل إننا نجد فيه السخف أيضاً ومن ذلك قوله:

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

هي الروح من نفسي وللعين قرة
فداء لها نفسي وعيني وحاجبي[1]

وفي معرض حديثه عن قدرة بشار الفائقة في التصوير والتجسيم يقول هدارة:

يصور بشار خفوق القلب والسهاد وينزع به نزعاً جديداً، حتى ان الإنسان يكاد يلمس بيده هذه الأشياء غير المنظورة حين يقول:

جفت عيني عن التغميض حتّى
كأن جفونها عنها قصارُ
كأن فؤاده كرة تنزى
حذار البين لو نفع الحذار

فشوقي ضيف ومحمد مصطفى هدارة يلتقيان حول أمرين يتعلقان بشعر بشار أولهما حرص بشار على التراث القديم والتمسك بذلك التراث.

والأمر الثاني انفتاحه على الحضارة الطارئة، ومحاولته الاستفادة منها بكل ما أوتي من قوة في شعره على اختلاف موضوعاته.

لكن الاثنين يختلفان مع الدكتور طه حسين في نظرتهما لغزل بشار ونظره هو إليه.

ففي حين نرى الدكتور طه حسين ينعت شعر الغزل عند

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٥٤٥.

بشار بالتدني عن سائر الأغراض الشعرية الأخرى وما ذلك إلا ليكون هذا الشعر أشـد شيوعاً في النساء وفتيات الهوى.

نجد ضيف وهدارة يريان في غزل بشار الرقي العقلي الحديث، وغزارة المعنى، وتنوع الأساليب.

والدكتور محمـد زكي العشماوي لا يبتعـد كثيراً عن ضيف وهدارة عندما يعيد الإبداع الفني عند بشار إلى ظاهرة المزج والتوفيق بين القديم والجديد والخروج بإيقاع شعري وصياغة شعرية تختلف اختلافاً واضحاً عن التجارب السابقة، وتتبنى لغة قادرة على التفاعل مع حركة التطور الحضارية[1].

ومن الأمثلة التي يقدمها العشماوي كدليل على المزج والتوفيق بين القديم والجديد عند بشار للإتيان بلغة جديدة شاعت في كلماتها الحركة والتطور والحيوية حتى راح الناس يغنونها في أيامه أبياته المشهورة التي يقول في مطلعها:

لـم يطـل ليـلي، ولكـن لـم أنـم
ونـفـى عـنـي الـكـرى طـيـف ألـم

إلى آخر القصيدة التي قالها في حبيبته عبدة[2].

ويتحدث المازني عن أثر فقدان البصر عند الإنسـان فيرى أنه «لا مفر من أن يحدث كف البصر أثراً في مـزاج

---

(١) موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي دار النهضة العربية ١٩٨١ ص ١٥١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٠ ـ ١٦١.

الإنسان، وتفكيره، وإحساسه. فما يبقى للمكفوف من وسائط الإحساس بالجمال وإدراك معانيه سوى السمع، واللمس، والشم. وهي أقل من العين غناءً، إذ كانت العين أوثق اتصالاً بالعقل. والعين أقدر من السمع واللمس على إفادة الاستمتاع به، لأنها هي تعين على تأليف الصور الذهنية، وهي صور تتألف من أشتات أخرى علقت بالذاكرة، وحصلت بالنظر[1].

وعجز بشار عن تأليف الصور الذهنية لفقده حاسة النظر تظهر جلية في قصيدته الرائية التي يصف فيها حديث من يتغزل بها بقطع الرياض:

وكـــان رجـــع حـــديـــثـــهـــمـــا
قـــطـع الـــريـــاض كـــســـيـــن زهـــرا

فيرى المازني أنه «أولى به أن يكون تشبيهاً لأنفاسها وطيبهـا، وإن كان مقبـولاً بمعنى أن نسيم الـريـاض ينعش الجسم، ويحيي النفس، فما لمثل بشار قدرة على إفادة المتعة بالرياض إلا بأرجها، وهي بغيـره سواء والصحراء[2].

ومما يراه المازني من خصائص شعر بشار أنه «يختار البحور اللطيفة المرقصة، ويكثر من السهولة، ويبرز المعاني التي تدور على الحس على نحو لم يكن مألوفاً، وقد شاع شعره هذا وتناقله الشباب والفتيات، وهو في هذا الضرب خريج ابن

---

(١) أعلام الإسلام بشار بن برد لإبراهيم المازني دار الشعب ١٩٧١ ص ٥٢.
(٢) المرجع نفسه ص ٥٧

أبي ربيعة وتلميذه، ولكنه لا يجاريه مجاراة المقلد، بل يسلك بعد التأثر به، طريقه وينفرد به، ويكثر من التصرف.

ويرى المازني أيضاً أن بعضاً آخر من شعر بشار ينحو فيه منحى القصص، مثل قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

كأن رجع حديثها

وقوله:

وحوراء المدامع من معد
كأن حوشيها ثمر الجنان

إذا قامت لمشيتها تثنت
كأن عظامها من خيزران[1]

وفي حديثه عن غزل بشار يقول المازني: «ونلمس لبشار في غزله صدقاً يعرف من كذب. فقد كان الشعر عنده صناعة، وكان همه أن يقوله في أغراضه وأن يقال أحسن وأجاد، لا أن يكون صادق السريرة فيه، ولكن إذا صدق فإن عبدة تكون قد أكثرت من التدلل والصد والجفوة والغضب.

يا عبد إني قد ظلمت وإنني
بين مقالة راغب أو راهبِ

وأتوب مما تكرهين لتقبلي
والله يقبل حسن فعل التائبِ

(١) المرجع السابق ص ٧٧.

وشعره فيها يحيد عن ذلك المجون الذي اشتهر به في تشبيبه بالأخريات. فما جاوز حد التصريح بأنه هالك إذا لم يذق برد ثناياها، ويخيل إلينا أنه بناه هذا البناء تقليداً لمن سبقوه من شعراء الغزل[1].

ويعيد العقاد تهالك بشار على مطالب الجسد وشهوات الحس إلى طبيعته وتربيته اللتان جعلتاه ماجناً خليعاً، وأن يوطن نفسه على ما يلقى من السخرية والعبث في سبيل ذلك، وأن يستهدف للضحك والابتسام والولع به، وأن يخلع الحياء فلا يبالي بشرف ولا دين، ولا يراقب الناس في أمر من الأمور التي تجتذبه وتستهويه، والتي يضاعف الحرمان من النظر في رغبته فيها، وتكالبه عليها، فلم يكن أحد أحق منه بأن يقول:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وبشار يهزأ بمكان الشعراء، ولا فخر له بغير الشعر الذي يتكسب به[2].

وخير مثال على سخريته من رؤبة بن العجاج الذي افتخر بنفسه على بشار زاعماً أنه شاعر ابن شاعر، فقال له بشار ساخراً: فأنت إذاً من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً[3].

---

(١) أعلام الإسلام للمازني ص ٨١ ـ ٨٣ وانظر بشر وغزله. شعره في عبدة لأندرة رومان ص ٢١٣.

(٢) مراجعات في الأدب والفنون لعباس محمود العقاد ص ١٠٣.

(٣) الأغاني ج٣ ص ١٧٥.

وربما كان من هذا الاستخفاف نظمه الشعر في الأغراض الركيكة كقوله في مدح جارية:

ربـاب ربـة الـبـيـت

ومنه أنه كان لا يتحرج من تكملة الكلام بما يحضره من الأسماء والمفردات التي لا وجود لها لينقل الوصف أحياناً مما يُرى إلى ما يحس فيصف الهوى كأنه شيء مصبوب على القلب والجسم كقوله:

إذا نـظرت أصبت عليك صبابة
وكادت قلوب العاشقين تطير

وقوله:

صببت هواك على قلبه
فضاق وأعلن ما قد كتم

وقوله:

من فتاة صب الجمال عليها
في حديث كلذة النشوان[1]

وفي حديثه عن الأغراض الشعرية عند بشار يرى العقاد: أن هجاء بشار لا يجد من يقرؤه أثراً قوياً لمرارة البغض الصادق، والغيظ الشديد على من ينحي عليهم بالهجاء، فإنما

(١) مراجعات في الأدب والفنون للعقاد ص ١٠٥.

كان هجوه صناعياً وفنياً، وكان أشبه بالعصى التي يذود بها من يتعرض له ثم يلقيها من يده إلى حين الحاجة[1].

وأما الوضع العام لشعر بشار حسب ما يراها العقاد فهو ينقسم إلى قسمين: بدوي تغلب عليه الجزالة والجفوة، وحضري تغلب فيه الرقة والنعومة، فإذا نظم في أغراض الشعر القديمة كان أقرب إلى لغة الأعراب التي لا تشوبها دماثة الحضارة، وإذا نظم في الغزل والمجون، كان أقرب إلى اللغة المألوفة الشائعة التي رقت حواشيها، وسلست عبارتها[2].

وأما طه الحاجري فينظر إلى غزل بشار بمنظار غير ما ينظره سائر النقاد فيرى: أن فن التشبيب عند بشار لا يقف عند لون واحد من ألوان الحديث عن المرأة والهوى كما يزعم البعض؛ وإنما يأخذ في ضروب شتى منها ما يصور الحب الجسدي الماضي العابث، ومنها ما يصور الحب القلبي المشبوب، ومنها ما يمثل ما يجري بينه وبين عشيقته، ومنها ما يصور صروف هواه لها، ومنها ما يكون وصفاً لها، ومنها ما هو نعت لحديثها. ومنها الشكوى والعتاب، ومنها الشوق والحنين، ومنها التذلل، ومنها التدلل إلى غير ذلك وهو في هذا كله يفتنُّ في المعاني والصور والألفاظ، والموسيقى الشعرية إلى غاية بعيدة[3].

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق ص ١١١.

(٣) بشار بن برد لطه الحاجري دار المعارف ص ٤٢.

وبشار في نظر حسين منصور يتذوق الشعر تذوق الشاعر الفنان، فيعطي كل شاعر منزلته، ويضعه حيث وضعه شعره. وقد كان مرة ينشد الشعر فوقف عليه السيد الحميري، وأقبل عليه وقال:

أيها المادح العبادي ليعطي
إن لله ما بأيدي العبادِ
فاسأل الله ما طلبت إليهم
وارج نفع المنزل العوادِ
لا تقل في الجواد ما ليس فيه
وتسمي البخيل باسم الجوادِ

قال بشار من هذا؟ فعرفوه. فقال: لولا أن هذا الرجل شغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا، ولو شاركنا في مذهبنا لأتعبنا(١).

لقد رأينا أن نقد المحدثين استند في أغلبه على آراء من سبقوهم من النقاد القدامى. وإن كنا لا ننكر أن لهم هم أيضاً آراءهم الخاصة التي جاءتهم نتيجة لتجرتهم الشخصية والخاصة.

---

(١) بشار بن برد بين الجد والمجون لحسين منصور المكتبة التجارية الكبرى بمصر ط ١ سنة ١٩٣٠ ص ٢٨.

الفصل الخامس

الخصائص الفنية لشعر بشار

كل شاعر مهما علت منزلته له قاعدة ارتكز عليها في بداية انطلاقة موهبته الشعرية؛ وشاعرنا بشار الـذي أمضى شطراً من حياته في ظل العصر الأموي، أراد هو الآخر أن تكون له ركيزة يثبت أقدامه عليها، وتكون منطلقاً لحياته الشعرية وشهرته.

وقد سبق لنا وقلنا في غير هذا الموضع ان بشاراً أراد أن يكون شاعراً هجاءً، لأن طبيعته النفسية جبلت على ذلك منذ صغره ألم نسمعه يقول لمن قال له: إنك لكثير الهجاء! فقال: إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بطبـع الشاعـر من المديـح الرائع، ومن أراد أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقراء وإلا فليبالغ في الهجاء فيخاف فيعطى. أوليس هو الذي قال لأبيه الذي كان يضربه لتعرضه للناس بالشتم: يا أبت لم تضربني كلما شكوني إليك! قال فما أعمل؟ قال: احتج عليهم بقول الله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج﴾ إمعاناً منه وتمادياً في

الشتم، ألم يقل هو هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرني ولو أجابني لكنت أشعر الناس.

فهذا الموقف الذي وقفه بشار من الهجاء جاء نتيجة لكرهه الشديد للناس والتبرم منهم كما يقول الأصمعي، وكان يقول: الحمد لله الذي ذهب ببصري؛ فقيل له: ولم يا أبا معاذ؟ قال: لئلا أرى من أبغض.

من هنا نرى أن الاستعداد النفسي عند بشار كان يقوم على أساس اختيار فن الهجاء ليكون سبيلاً له ومنهجاً في حياته ليصل إلى تحقيق ما يريد من كسب المال، أو احترام الناس وتخويفهم. ولما نظر إلى ما حوله في العصر الأموى، وجد ذلك العصر يضج من تيارين يتقاسمانه؛ تيار النقائض بزعامة الأخطل وجرير والفرزدق أو ما يحلو للنقاد أن يسميهم بالثالوث الأموي، وتيار الغزل بنوعيه الإباحي بزعامة عمر بن أبي ربيعة، والعذري بزعامة جميل.

أراد بشار أن يتتلمذ على يدي جرير فاختاره من بين شعراء النقائض ليكون نده في الهجاء لكن جريراً تغاضى عنه كما قلنا ولم يأبه له، فأفشل خطته، لكن بشاراً لم يتخل عن الهجاء، بل جعله من أهم فنونه الشعرية، وإذا أردنا أن نلحق بشاراً بجرير من حيث التأثر والتأثير، فإننا نجد فروقاً هامة بينهما؛ فجرير في هجائه لخصومه كان لا يتعدى الصفات الخارجية للمهجو، أو التعرض لأبيه أو جده أو قبيلته بصفاتهم الأخلاقية كالبخل أو الدناءة أو الضعة، أو غير ذلك، أما بشار

فكان لا يدع كلمة مفحشة في شتم الأعـراض إلا وأتى بها ليرمي خصمه بلهيب نارها.

من هنا نجد جريراً وبشاراً يفترقان في المنهج والطريقة التي يعالج كل منهما شعره الهجائي بها، لهذا لا نستطيع أن نجعل بشاراً تلميذاً لجرير، أما إذا عدنا إلى موضوع الغزل، فقد اختاره بشـار أيضاً، ولمع فيه صيته حتى أصبح حديث الناس، ألم نسمع من بشار قصة ذلك الشاب الذي جاءه يوماً وقال له: أنت بشار؟ فقال نعم؛ فقال: اني آليت أن أدفع إليك مائتي دينار وذلك أني عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلي، فهممت أن أتركها فذكرت قولك:

لا يـؤيـسـنـك مـن مـخـبـأة
قـول تـغـلظه وإن جـرحـا
عـسـر الـنـسـاء إلى مـيـاسـرة
والصعب يمكن بعـدمـا جـمحـا

فعدت إليها فلازمتها حتى بلغت منها حاجتي.

ألم يأته مالك بن دينار ويقول له: يا أبا معاذ، أتشتم أعراض الناس وتشبب بناتهم، ووعده بشار بأن لا يعود.

ألم يقل عنه واصل بن عطاء: إن من أخدع حبائـل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد.

إن الركيزة التي استند عليها بشار في غزله هو عمر بن أبي ربيعة، فقد وجد بشار فيه الكثير من المزايا التي تتلاءم مع مـزاياه، ويكفيـه من تلك المزايـا المجاهـرة بعشق المـرأة

والحديث معها، ووصف خلواته برفقتها. من هنا لا نعجب أن نجد الكثير من خصائص شعر عمر الغزلي واضحة في شعر بشار، فحسبك أسلوب الحوار الذي يجري بين الشاعر وبين من يعشق، وحسبك أيضاً خاصية التغزل بالنفس بدلاً من التغزل بالمعشوقة، وحسبك أخيراً تلك المطاردة من قبل المرأة للشاعر بدلاً من أن يكون هو المطارد لها.

لكن الحقيقة التي يجب أن تقال وهي: أن بشاراً وإن تأثر بالإطار الخارجي لشكل القصيدة الغزلية بعمر، لكنه اختلف معه اختلافاً بيناً من حيث المضمون، فعمر يلهث وراء المرأة ليقتنصها، وتتحول فيما بعد إلى شريكة لحياة عمر فتصبح زوجة له مهما كان ذلك العدد، وعمر مفتون بالجمال مولع به، ولهذا يبحث عنه ليجده مهما كلفه ذلك من جهد أو وقت. وعمر يرضى من المفتون بها بقبلة، أو حديث، أو تندراً وغير ذلك.

أما بشار فيطارد المرأة ليقتنصها ويفتك بها فتكاً ذريعاً فلا يدع شيئاً من الفحش إلا ويرتكبه معها، وبشار لا يهمه كثيراً الجمال أو الافتتان به فهو لا يرى ولا يبصر من يمسك بها، ولهذا لا فرق عنده بين امرأة سيدة جميلة أو عبدة سوداء وضيعة، المهم أن يمارس الجنس، ويلجم جوامح لذته. من هنا نجد أن بشاراً وإن كان تلميذاً لعمر، لكنه تفرد عنه، ونهج منهجاً مغايراً لمنهجه[1].

---

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج٣ ص ١٦٢.

والسؤال الذي يراود الذهن دائماً هو أين هي الخصائص التي التقى بشار مع عمر وأين افترقا.

إن أولى الخصائص التي طبع بها بشار غزله بطابع غزل عمر وسار على طريقه فيهاهي خصوصية الحوار والخصوصية الثانية هي جعله من نفسه مطارداً من المعشوقة، لا هي المطاردة منه، والخصوصية الثالثة هي تغزله بنفسه في بعض شعره بدلاً من التغزل بمن يعشق.

ولتكون الصورة أكثر وضوحاً علينا أن نلقي الضوء على شعر بشار الغزلي لنرى صورة ذلك الغزل بكل جزئياته، ثم علينا أن نتعرض إلى سائر شعره لنرى أيضاً ملامح ذلك الشعر ومميزاته.

إذا كانت الخصوصية الأولى لشعر بشار هو الحوار ترى كيف كان يجري ذلك الحوار، وما هي طرقه المتبعة، ونتائجه المحصلة.

إن الحوار الذي كان يجري بين بشار بن برد وبين من يعشق هو كما قلنا حوار مادي غريزي، إذ نرى كل جهد بشار وإبداعه، ينصب على إقناع المرأة أو الفتاة المستهدفة على الوقوع في حبائله الشيطانية ليرتكب معها الإثم والفجور كما نلاحظ في كثير من قصائده فلنسمعه يقول:

فلما رأيت الهوى قاتلي
ولست بجار ولا بابن عَمْ

دســـــت إلـــيــهـــا أبـــا مـــجـــلز
وأي فــتــى إن أصــاب اعــتــزم
فـــمـــا زال حـــتـــى أنـــابـــت لـــه
فـــراح وحـــل لـــنـــا مـــا حـــرم

فقد راود بشار الفتاة أو المرأة عن نفسها، فلما تمنعت أدخل من أقنعها في ذلك حتى تم لبشار ما أراد.

وقوله مع أخرى:

فـقـالـت عـلى رقـبـةٍ انـنـي
رهـنـت الـمُـرَّعـث خـلـخـالـيـهْ
بـمـجـلـس يـوم سـأوفـي بـه
ولـو أجـلـب الـنـاس أحـوالـيـه

فالفتاة تتحدث مع من يحذرها من بشار فتجيبهم أنها قد وضعت على نفسها عهدا بأن تلبي موعدها معه، وأنها وضعت عنده رهانا غاليا هو خلخالها، وأنها مصممة على تلبية نذرها أو موعدها ولو وقف الناس كلهم في وجهها.

فهنا نلاحظ كيف وضع بشار نفسه موضع عمر بن أبي ربيعة عندما جعل الفتاة هي التي تصر على مقابلته، أو السعي إليه بكل رغبة وشوق؛ فيصبح بشار هو المطلوب أكثر منه الطالب.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧١.

ولنستمع إلى هذا الحوار العاصف الذي يجري بين فتاة تريد بشاراً، وأم تحاول جهدها أن تمنعها من ذلك.

أمتا بدد هذا لعبي
وشاحي حَلَّه حتى انتشرْ
فدعيني معه يا أمتا
علنا في خلوة نقضي الوطرْ
أقبلت مغضبة تضربها
واعتراها كجنون مستعر
بأبي والله ما أحسنه
دمع عين يغسلُ الكحل قطر
أيها النوام هبوا ويحكم
وآسألوني اليوم ما طعم السهرْ(١)

لقد انتصرت الفتاة على أمها، وذهبت إلى بشار ليقضي معها سهرة تمنى لو جميع الناس سهروا معه ليرونه ماذا يفعل.

ولنستمع إليه كيف يتغزل بنفسه فيصف ذاته بدلاً من أن يصف من يعشق. على طريقة عمر بن أبي ربيعة.

نفسي يا عبد عني واعلمي
أنني يا عبد من لحم ودمْ
إن في بردي جسماً ناحلاً
لو توكأت عليه لانهدم

(١) الأغاني ج٣ ص ١٧٢.

ختـــم الـــحـب لــهــا فـي عــنـقـــي
مــوضــع الخـــاتم من أهــل الــذمم[1]

فبشار نحيل الجسم لا المعشوقة، وهو من لحم ودم يتحسس كل ما يطرأ عليه من مؤثرات خارجيـة، وهي التي ختمت عنقه بخاتم الحب الأبدي الذي لا انفصام له.

إذن غزل بشار عبارة عن حوار فيه المراودة بينه وبين من وقع عليها شره وإثمه، وكان في الغالب هو الفائز بما يريد.

وبعد الحوار المادي بين بشار وبين من يعشق، نجد الأوصاف التي يستخدمها الشاعر في وصف من يهوى؛ فإذا هي حوراء العينين، خلقت وحدهـــا، كالبدر صورتها، أو درة بحرية، أو هي كالشمس تحت الزبرجد. من الأوصاف التي يذكرها بشار لمعشوقاته يتضح أنه كان متهالكاً على اللذة، إلا أنه يريد أن تكون مع خيرة النساء.

ونحن في حوار بشار مع من يعشق لا نجد أو نتلمس أي أثــر روحي يـدل على الإعجـاب المتبـادل بين العــاشق والمعشوق، وكل ما نجده هو عبارة عن حوار بين زانٍ وزانية، أو آثم وآثمة يرتكبان الفحش جهراً بدلاً من أن يستراه، دون الأخذ بالنظر لما يمكن أن يحدثه هذا القول من إيذاء لسمع من بسمعه. فالعبارات والألفاظ كلها مادية جنسية صرفة كالقبلة والعضة، وحل الإزار، واسترخت، والعراك، ومص الريق،

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥١.

وعلاني وغيرها من الكلمات المثيرة لغريزة الجنس، والمحرضة على سلوك مثل هذه المسالك القبيحة.

وقصائد بشار الغزلية فيها الغث والسمين؛ ففي أماكن نراه يخطىء الإجابة في الغزل عندما نراه يحل نفسه محل المعشوقة في استخدام ألفاظ الغزل، ومن أمثلة ذلك قوله متحدثاً عن عشقه لمحبوبته، وامتناعها عنه.

يا ليتني كنت تفاحاً مفلجة
أو كنت من قضب الريحان ريحاناً
حتى إذا وجدت ريحي فأعجبها
ونحن في خلوة مثلت إنسانا(١)

فهو هنا يتغزل بنفسه بدل التغزل بالمعشوقة، فيتمنى لو كان تفاحة، أو قضيب ريحان، تنبعث منه الرائحة الطيبة فتهواه من رفضته من قبل.

فبشار هنا يذكرنا بعمر بن أبي ربيعة الذي كان يجعل من نفسه مقصداً للنساء، بدلاً من أن يكن هنَّ مقصده.

وبشار في اختياره للتشبيهات قد يخطىء أحياناً في وضعها في المكان الصحيح؛ فهو مثلاً حين يصف حسن حديث إحدى الفتيات يصفه بقطع الرياض المكسوة بالزهور. وحين يصف الكلام الخارج من لسانه بحركات سحر هاروت ملك بابل الذي كان يعلم السحر، وكان في رأي لو وصف رجع

(١) الأغاني ج٣ ص ١٨٠.

حديثها بحركات هاروت، ووصف كلامها بقطع الرياض لكان أحسن ملاءمة. والسبب في ذلك أن حسن الكلام وتنوعه يكون أكثر ملاءمة له قطع الرياض، وترجيع الحديث بحركاته كحركات هاروت.

وفي أماكن أخرى كثيرة نرى مواضع الجمال والإبداع كقوله:

فـوا كبـداً قــد انضــج الشــوق نصفهــا
ونـصف عـلى نــار الصبــابــة ينـضـج

فقد جعل حرارة الشوق كحرارة النار. وجعل نصف كبده عليها تصطلي بنارها ونصفها الآخر على نار الحب ينضح.

ومن الإجادة في شعره الغزلي قوله أيضاً:

إن دائــي الــظمــاء وإن دوائــي
شــربــة مــن رضــاب ثــغــر بــرودِ
ولـهــا مـضـحـك كـغـر الأقــاصــي
وحــديث كــالــوشي وشـي البــرودِ(١)

وقوله:

كـأن لســانــا ســاخــراً في كــلامهــا
أعــيــن بــصــوت لــلقــلوب صــيــودِ

(١) الأغاني ج٣ ص ١٨٧.

تـمـيـت بــه ألـبــابـنــا وقـلـوبـنــا
مـــراراً وتـحـيـيـهـن بـعــد هـمــودِ[1]

نلاحظ هنا تكرار التشابيه في غزل بشار، فهو يكثر من استخدام كلمة الرضاب، والثغر البرود، وتشبيه الحديث تارة بـالريـاض المكسوة بـالزهـور، وتارة أخـرى بالـوشي وشي البرودي. ثم يكرر وصف كلامها بالسحر، أو سحر هاروت.

ونلاحظ هنا أيضـاً أثر فقـدان البصر مـاثل في هـذه الأبيات، فهو يـركز على حـاسة السمـع، ولهذا نـراه ينوع بالتشابيه لأنه قادر على ذلك؛ نيجعل كلامها بسحره مصيدة للقلوب، وهذا الكلام يميت العقول والقلوب ثم يحييها بعد همودها ثم إن التشبيهات التي لا تعتمد على حاسة النـظر نجدها عند بشار عامة غير محددة لقوله قطع الرياض المزهرة، والوشي وشي البرود وغيرها من التشبيهات دون أن يلمح إلى أنواع وأشكال هذه الموصوفات.

وقد لمح إلى ما ذكرنا الدكتور شوقي عند حديثه عن غزل بشار في قصيدته:

يـــا لـيـلـتـي تـــزداد نـــكـــرا
مـــن حـب مـــن أحـبـبـت بـــكـــرا

فقال: «وواضح في هذه القطعة أثر فقده لبصره، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم والسمع واللمس والحس، فهو

(١) المصدر نفسه ص ١٨٩.

يصف أنفاسها وما تنشره من طيب كطيب الرياض، ويصف حديثها وما تذيع فيه من سحر، ويصور جسدها ذهباً عطراً، أما ما ينعم به من جمالها فشراب بارد سلسبيل صادف صائماً يتحرق عطشاً. وقلما ارتفع في غزله عن الحس والسمع والأذن، ونوه بذلك كثيراً في شعره، محاولاً أن يعتذر عن فقده لمتعة الجمال متعة حقيقية بالبصر»[1].

وكما زين بشار شعره الغزلي بالتشبيهات، فقد زينه أيضاً بجملة من الصور البلاغية الأخرى كالاستعارة في قوله: للقلوب صيود، تميت ألبابنا وقلوبنا وتحييهن، والتصريع في نكرا وبكرا وجناس بين وجنية وإنسية وأنم وألم والطباق بلا ونعم الخ.

وإذا انتقلنا إلى موضوع الهجاء وجدنا أنه يستخدم الكلمات والتعابير المؤلمة يرمي بها خصمه ليؤذي مشاعره وشرفه وخاصة عرضه. فلنستمع إليه مثلاً يهجو بعض الناس ولنلاحظ ما استخدم من تعابير في هجائهم:

فأبلغ بني زيدان وقل لسراتهم
وإن لم يكن فيهم سراة توقَّرُ
لأمكم الويلات إن قصائدي
صواعق منها منجد ومغور
أجدهم لا يتقون دنية
ولا يؤثرون الخير والخير يؤثر

---

(١) العصر العباسي الأول ص ٢١٧.

يلقون أولاد الزنا في عدادهم
فعدتهم من عدة الناس أكثر
ولو فارقوا من فيهم من دعارة
لما عرفتهم أمهم حين تنظر[1]

فأنت تلاحظ أن في كل بيت كلمة شتم وإيذاء للمهجوين؛ فهم لا يكتمون الشر، ولا فضل فيهم، ولهم الويلات من شعره الذي ينجد ويغور وهم لا يتقون دنية، ولا يؤثرون الخير، وهم يجمعون أولاد الزنا مع أولادهم، حتى أصبحوا جميعاً كلاً واحداً، وهم من أهل الدعارة، حتى انك إذا ما أبعدتهم عن أهل الدعارة ضاعوا عن عيون أمهاتهم ولما عرفتهم.

وعندما سمع يونس النحوي هذا القول في الهجاء قال: حسبك حسبك من هيج الشيطان عليهم؛ قيل فلان؟ فقال: رب سفيه قوم قد كسب لقومه شراً عظيماً[2].

وإذا انتقلنا إلى موضوع المدح وجدنا أن مدح بشار تكسبي غابت عنه جميع الأوصاف التي اعتاد الشعراء أن يصفوا بها ممدوحيهم؛ وكيف أنهم كانوا يتغنون في ابتكار الأوصاف الملائمة للممدوح فلكل مقام مقال؛ فالخليفة له صفات أمير المؤمنين والعادل والتقي والزاهد، وحامي

---

(١) الأغاني ج٣ ص ٢٠٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥.

الإسلام. والحكيم وغيرها؛ وللوزير صفات حسن الإدارة وتدبير أمر الحكم، والمحافظة على أموال المسلمين، والإصلاحات التي تأتي بالخير على المسلمين. وللقائد صفات الشجاعة والإقدام في الحرب، وحسن تنظيم الجيوش وقيادتها، ومهاجمة الأعداء وقهرهم.

ولننظر إلى مدح بشار ونرى مدى تجاوبه مع هذه الصفات فهو مثلاً يمدح الخليفة سليمان بن هشام بن عبد الملك فيقول فيه:

لعلك أن تستيقني أن زورتني
سليمان من سير الهواجر تعقبُ
أغر هشامي القناة إذا انتمى
نمته بدور ليس فيهن كوكب
وما قصدت يوماً مخيلين خيله
فتصرف إلا عن دماء تصبب[1]

إننا لو أجهدنا الفكر والتمعن في النظر في هذه الأبيات، لوجدنا أن سليمان يشبه البدر الذي إذا برز لم يظهر من الكواكب كوكب، وأن الخيل التي يركبها للحرب لا تعود إلا مخضبة بالدماء.

ولنسمعه يمدح الخليفة المهدي فيقول:

كأنما جئته أبشره
ولم أجيء راغباً ومحتلبا

(١) الأغاني ج٣ ص ١٩٢.

يــزيـن المـنبــر الأشــم بعــطـ
ـفـيــه وأقــوالــه إذا خــطبــا
تشم الـفـلاة في الـنـدى كمـا
يشم مــاء الــريحــان منـهبــا[1]

فالمهدي إذا وقف على المنبر زينه بعطفيه، وبأقواله إذا خطب، وحيثما سار رأيت رائحة العطاء، كما يشم ماء الريحان، فأين الصفات التي تطلق عادة على الخليفة كما قلنا.

ولنسمعه يمدح خالداً البرمكي فيقول:

لعمــري لقـد أجـدى علي ابن بــرمـك
ومــا كـل من كــان الغنى عنـده يجــدي
حــلبـت بــشـعــري راحــتيــه فــدرتــا
سمـاحــاً كمــا در السحـاب مــع الرعــدِ
إذا جئــتــه لــلحــمــد أشـرق وجــهــه
إلـيــك وأعــطاك الكـرامــة بــالحـمـدِ
لــه نـغـم في الـقــوم لا يستثيبـهـا
جــزاء وكيــل التــاجـر المــدُّ بــالمـدِّ
مــفـيــد ومــتـلاف ســبـيــل ثــرائه
إذا مــا غـدا أو راح كــالجــزر والمــدِّ[2]

(١) المصدر نفسه ص ٢١٩.
(٢) المصدر السابق ص ١٩٢.

فما هي صفات خالد البرمكي: إنه غني معطاء، وليس كل غني يعطي، وهو يعطي الشاعر والشاعر يحلب راحتيه، كما أن وجهه يستبشر بالخير عندما يأتي إليه أحد يطلب المساعدة، ولكن يقرن العطاء بالحمد والثناء له. وهو له نعم في القوم، والقوم يشكرونه على عطائه كالتاجر الذي يكيل المد بالمد.

إن هذه الأوصاف التي أعطاها بشار لخالد البرمكي، يمكن أن تعطى لأي فرد من عامة الناس، فأين هي تلك الصفات التي ترقى إلى مستوى خالد وهو مؤسس الأسرة البرمكية التي اشتهر أبناؤها بالكرم والعلم وحسن الإدارة حتى ضرب بها المثل، وجعلت أفئدة الناس تهوي إليهم دون خلفاء بني العباس.

نستطيع أن نقول إذاً إن بشاراً لم يوفق في مدحه هنا.

ولا بد من الإشارة ونحن في معرض الحديث عن عناصر البلاغة عند بشار إلى أن تشابيهه واستعاراته مستمد جزء منها من البيئة الحضارية التي تنعم بها بشار وهي التي تحدثنا عنها فجاءت لا تخلو من طرافة الصياغة والأداء وجزء منها مستمد من طبيعة البداوة التي تأثر بها كثيراً وخاصة في بداية حياته الشعرية. فجاءت تحمل صورة الصحراء بكل معانيها وأوصافها وخاصة في قصيدته التي هجا بها الأعرابي الذي تعرض له وسخر منه لأنه مولى.

خليلي لا أنام على اقتسار
ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عني
وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العري خزاً
ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع
بني الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح
شركت الكلب في ولغ الإطار
تريغ بخطبة كسر الموالي
وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدريها
ولم تعقل بدراج الديار
وتتشح الشمال للابسيها
وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا
فليتك غائب في حر نارِ
وفخرك بين خنزير وكلب
على مثلي من الحدث الكبارِ(١)

فبشار في هذه القصيدة حرص على أن تكون أوصافها

(١) الأغاني ج٣ ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

في الأغلب من البادية راع وراعية القراح والكلب ولغ الإطار، صيد فار، القنافذ أو تدريها، دراج، ورعي الضأن، البلد القفار، وخنزير وكلب.

وأما لغة بشار الشعرية فقد كانت تتراوح بين الوضوح والغرابة حسب الموضوع الذي يعالجه، ففي لغة الغزل عنده نجد أن أغلب ألفاظه جاءت سهلة واضحة إلا في بعض الحالات التي كان فيها مضطراً إلى أن يدخل بعض الكلمات التي لا معنى لها ليستقيم له الوزن كاستعانته بكلمة (أبا مجلز). وعندما قال له رجل: ومن أبو مجلز هذا يا أبا معاذ؟ قال: وما حاجتك إليه ألك عليه دين، أو تطالبه بطائلة وهو رجل يتردد بيني وبين معارفي في رسائل[1].

ولما سئل عن معنى كلمة (الشيفران) في قوله:

ولها خد أسيل
مثل خد الشيفران

قال: ما يدريني! هذا من غريب الحمار، فإذا لقيته فاسأله[2].

وكان بشار في كثير من الأحيان يتعمد الوحشي من الألفاظ، أليس هو الذي يقول: بلغني أن سلماً يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه فقلت:

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٢.
(٢) الأغاني ج٣ ص ٢٢٢.

بكرا صاحبي قبل الهجير
إن ذاك النجاح في التبكير

حتى فرغ منها؛ فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان: إن ذاك النجاح:

بكرا فالنجاح في التبكير

كان أحسن؛ فقال بشار: بنيتها اعرابية وحشية، فقلت إن ذاك النجاح كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: «بكرا فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة[1].

ولو نظرنا إلى قصيدته في هجاء الأعرابي لوجدنا أن الغرابة تكاد تخيم على أغلب ألفاظه، والغموض يشوب المعاني بحيث لا يمكن معرفتها إلا بمراجعة معاجم اللغة.

ومثله قول بشار:

فلما تولى الحَرُّ واعتصر الثرى
لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
وطارت عصافير الشقائق واكتسى
من الآل أمثال المجرة ناضبه
غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى
إلى الجاب إلا أنها لا تخاطبه

فنحن لا يمكن أن نفهم معنى العانة إلا إذا استعنا

(١) المصدر السابق ص ١٩٠.

بالمعاجم ومعناها القطيع من الحمير البرية، وكذلك لفظة الجآب وهو ذكرها، ومعنى شكواها الصدى بأبصاها أن العطش قد تبين في أحداقها فغارت، ولهذا قيل عن هذه الأبيات انها من أحسن ما وصف به الحمار والأتن (١).

ورغم ما اشتهر به بشار بن برد من أسبقية في كثير من الأغراض الشعرية إلا أنه شأنه كشأن سائر الشعراء يتوكأ أحدهما على الأخر في اقتناص معانيه ووضعها في قالب لغوي أخر يكون أكثر أداء من سابقه فيكون رواجه أكثر.

ونحن نجد بشاراً يثور على سلم الخاسر ثورة جعلت سلماً يبكي خوفاً من هجاء بشار له وما ذاك إلا لأنه أخذ معناه الذي يقول فيه.

من راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات الفاتك اللهجُ

أخذ المعنى سلم الخاسر ووضعه في صياغة لفظية أخرى فقال فيه:

من راقب الناس مات غماً
وفاز باللذة الجسور

فقال له بشار: أفتأخذ معاني التي قد عنيت بها وتعبت

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩٨.

في استنباطها، فتكسوها ألفاظاً أخف من ألفاظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري[1].

لكن بشاراً نسي أنه هو أيضاً يغدو على معاني غيره من الشعراء فيكسوها ألفاظاً جديدة فتجعلها أكثر رواجاً من سابقتها؛ فهو الذي أخذ عن امرىء القيس طريقته في تشبيهه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لدى وكرها العنابُ والحشف البالي

فقال بشار:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أليس عندما نسمع بشارا يقول في موقف خطابي:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة
ذرى منبر صلى علينا وسلما

نتذكر موقف عمرو بن كلثوم الخطابي:

لنا الدنيا ومن أمسى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا

---

(١) الأغاني ج٣ ص ٢٠٠.

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما
تخر له الجبابر ساجدينا[1]

وأما معناه الذي يقول فيه:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى
ولم أدر أن الجود من كفه يعدي

فقد أخذ عن قول الشاعر:

وصافحها كفي فآلم كفها
فمن لمْسُ كفي في أناملها عقْرُ[2]

وأما قوله:

يروعه السرار بكل أرض
مخافة أن يكون به السرارُ

فقد أخذه من قول أشعب: ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننت أنهما يأمران لي بشيء[3].

وعندما سئل عند ذلك هرب كعادته من الإجابة.

وفي المقارنة بين جميل وبشار حول سهر المحب حيث يقول جميل:

كأن المحب قصير الجفون
لطول السهاد ولم يقصر

---

(1) المعلقات العشر للشنقيطي ص ١٥٣ دار القلم.
(2) مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ١٢.
(3) الأغاني ج٣ ص ٢٢٣.

أخذ المعنى بشار فقال:

جفت عيني عن التغميض حتى
كأن جفونها عنها قصار

قال الأصمعي: إن بشاراً قد أحسن في أخذه(١).

وأما أسلوب بشار فتسيطر عليه الروح الشعبية ليكون قريباً من عامة الناس لتفهمه وتغنيه، ومن هنا جاء خطر شعر بشار الغزلي الإباحي والهجائي على من يتحدث عنهم، وشيوع القول بين الناس، حتى قال الأصمعي عنه: عهدي بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة إلا ويروي من شعره(٢).

كما كان شعره يصنع للنساء لينحن به.

من هنا ندرك سر شيوع ذلك الشعر على ألسن العامة والخاصة ومن أمثلة شعره الشعبي قوله:

قل لحبى قرِّبيني
أنت نفسي وحياتي
وهمومي حين أغدو
وحديثي في صلاتي(٣)

ولننظر إليه كيف يخاطب من يعشق بأسلوب سهل رقيق على شكل رسالة:

---

(١) المدائح للمرزباني ص ٤٥٠.
(٢) الأغاني ج٣ ص ١٤٩.
(٣) ديوان بشار ج٢ ص ٣٧.

مــن الــمــشــهــور بــالــحــب
إلــى قــاســيــة الــقــلــب
ســلام الله ذي الــعــ
ـرش عـلى وجـهـك يـا حـبـي
فـأمـا بـعـد يـا قـر
ة عـيـنـي ومـنـى قـلـبـي
ويـا نـفـسـي الـتـي تـسـكـن بـ
ـيـن الـجـنـب والـجـنـب
لـقـد أنكـرتُ يـا عـبـد جـفـ
ـاءً مـنـك فـي الـكـتـب[1]

وأسلوب بشار السهل قاده إلى أن يستخدم الكلمات العامية مثل قوله:

لـقـد كـنـت عـلى الـعـيـنـيـن
والـراس فـنـحـيـتُ

وكما نجد الكلمات العامية نجد التعابير الشعبية كقوله:

أبـا مـخـلفٍ مـا زلـت نـبـاح غـرةٍ
صغيـراً فلمـا شبت خيمت بـالشـاطي
كـسـنـور عـبـد الله بـيـع بـدرهـم
صغيـراً فلمـا شب بيـع بقيـراطِ[2]

---

(١) الديوان ج١ ص ٢٠٦ .

(٢) حياة الحيوان للحافظ ج٢ ص ٤٠ .

وحول لغة الشعر عند المولدين يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة: إن لغة الشعر المولدة بجميع عناصرها وسماتها تظهر وتتضح عند بشار وأبي نواس، في بابي التغزل والهجاء بالذات، لأنهما أكثر أبواب الشعر اقتراباً من نفوس الجماهير، وأحظاهما عند الناس من الناحية الموضوعية[1].

ولغة الشعر ليست وحدها السبب في اقتراب شعر بشار من نفوس الجماهير، بل نجد بالإضافة إليها توفير العنصر الموسيقي المؤثر سواء في القصائد التي نظمها على البحور الطويلة، أم المجزوءة، أم البسيطة.

وتعتمد الموسيقى الداخلية عند بشار على حركات الإيقاع المتماثلة داخل البيت مثل حركات المد في الألف، أو الواو أو الياء مثل قوله:

أيها الساقيان صبا شرابي
واسقياني من ريق بيضاء رودِ
إن دائي الظما وإن دوائي
شربة من رضاب ثغر برودِ
ولها مضحك كغر الأقاحي
وحديثٌ كالوشي وشي البرودِ
نزلت في السواد من حبة القلـ
ـب ونالت زيادة المستزيدِ

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٥٩٣.

ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ
والليالي يلين كلَّ جديدِ
عندها الصبرُ عن لقائي وعندي
زفرات يأكلن قلب الحديدِ[1]

ونحس أن توالي النون الأصلية، ثم الناتجة عن التنوين تعطي اتباعاً بطيء الحركة يتوافق مع التفريع الذي يريده الشاعر مثال ذلك عند بشار:

أمنتُ مُضَرَّةَ الفحشاء أني
أرى قيساً تضر ولا تضارُ
كأن الناس حين تغيب عنهم
نبات الأرض أخطأه القطار
وقد كانت بتدمر خيل قيسٍ
فكان لتدمرٍ فيها دمارُ
بحيٍّ من بني عيلان شوسٍ
يسير الموت حيث يقال ساروا
وما نلقاهم إلا صدرنا
بريٍّ منهم وهم حرارُ[2]

وقد توالت هنا أيضاً الواو الأصلية ثم الناتجة عن الضم.

ويستخدم بشار التكرار أحياناً والمطابقة مع توالي

(١) الأغاني ج٣ ص ١٨٧.
(٢) المصدر السابق ص ١٣٩.

حركات الإيقاع المتشابهة الأصوات في الموسيقى الداخلية في قوله:

لـم يـطل لـيـلي ولـكـن لـم أنـم
ونـفى عـنـي الـكـرى طـيـف ألـم
وإذا قـلـت لـهـا جـودي لـنـا
خـرجـت بـالصـمت مـن لا ونعـم
نـفسي يـا عـبـد عـنـي واعـلمي
أنـنـي يـا عـبـد مـن لـحـم ودم

فقد طابق بين لم أنم وألم، ولا ونعم، وكرر لفظة يا عبد، وتوالت حركات الميم والنون والتاء، والياء.

ويأتي بشار بكلمات ممدودة بالواو إما أصلية أو نتيجة الرفع مثل قوله:

أيـهـا الـنـوام هـبـوا ويـحـكـم
واسـألـوني اليـوم مـا طعم الـسـهـر

ونرى بشاراً يستخدم المجانسة والطباق استخداماً بارعاً في احداث الموسيقى الداخلية كما في قوله:

صـدت بـخـدٍ وجـلـت عـن خـد
ثـم انـثـنـت كـالـنـفس الـمـرتـد
عـهـدي بـهـا سـقـيـا مـن عـهـد
تـخـلـف وعـداً وتـفـي بـوعـدِ
إذا الـحـيـا أكـدى بـهـا لا تـكـدي
تـلحـم أمـراً وأمـوراً تـسـدي

كما يستخدم حسن التقسيم والتوازن بإحداث الموسيقى في شعره قبل قوله:

فـوا كبـداً قـد أنضـج الشـوق نصفهـا
ونـصف عـلى نـار الصـبابـة ينـضـج

وقوله:

فـراحـوا فـريـق في الإسـار ومـثـله
قـتـيـل ومـثـل لاذ بـالبـحـر هـاربـه

ويلجأ بشار إلى التقطيع الصوتي الذي يعتمد على العبارات القصيرة المتوازنة لأحداث موسيقاه لنسمعه يقول:

مـا زال مـا منيتـني مـن همـي
والـوعـد غـم فـأزح من غـمـي
إن لم تـرد حمـدي فـراقـب ذمي

ولنسمعه يقول أيضاً:

مـا أنـت يـا كـردي بـالـهش
ولا أبـريـك مـن الـغشّ
لـم تـهـدنـا نـعـلاً ولا خـاتـمـاً
مـن أيـن أقـبـلـت؟ مـن الـحش[1]

ولعل مما قدمنا عن بشار بن برد ما يوضح طريقته في

(١) الحش (بتثليث الحاء): البستان وموضع قضاء الحاجة لأنهم كانوا يقضون حاجاتهم في البساتين.

ابتكار صنعة الشعر التي هي إن صح التعبير وليدة مزاج الحضارتين القديمة والحديثة مما جعل من منهج بشار هذا منهجاً عاماً لأغلب الشعراء الذين جاءوا من بعده، فاستحق بجدارة أن يقال عنه زعيم المجددين في العصر العباسي.

ولا يخالفنا القول من يرى أن أكثر شعراء العصر العباسي ولدان صفتين، ورضاع لغتين وأدبين، وربائب حضارتين مختلفتين. ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل، ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي[١].

وقريب من هذا الرأي من يرى أن جمال الموسيقى، ووضوح المعنى، وثقافة الفكر في العصر العباسي تعود لمظاهر ازدهار الأدب، وسبب ذلك أن الشعراء في هذا العصر يحمل أغلبهم ثقافة واسعة في مختلف العلوم التي كانت شائعة في هذا العصر[٢].

---

(١) تاريخ الأدب العربي للزيات ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ دار الثقافة بيروت ط ٦ د.ت.

(٢) شخصيات أدبية من الشرق والغرب لمحمد كردعلي ص ٨٥ ـ ٨٦ منشورات مكتبة الحياة ط٢ سنة ١٩٦٦.

خاتمة البحث

حاولت في هذا البحث أن أقدم دراسة أدبية تستقصي الحقائق، وتسوق البراهين حول حياة وشعر بشار بن برد. فبدأت باسمه ونسبه، وتعرضت لألقابه وكناه وأسباب تلقبه وتكنيه بها وتأثيرها فيه، وأشرت إلى ما كانت ترمز إليه، فعرفنا أنه كان مولى لبني عقيل بالولاء، وأن أصله من طخرستان من بلاد فارس.

وجهدت أن نتعرف على نشأته الأولى لنلقي الضوء على اتجاهات حياته، ولكني لم أجد في طوايا المصادر إلا إشارات خافتة ومتقطعة عن حياته، فلم نعرف من أمر صباه سوى أنه نشأ ضريراً في رعاية والديه، وقد طبع منذ صغره على طابع الهجاء مما أسخط الناس عليه، فكانوا يشكونه إلى والده فيعمد إلى ضربه.

وقد رأيت أن دراسة بشار تقتضي الوقوف على ثلاث محطات: أسرته، ولاؤه القومي ثم فقد بصره.

أما أسرته المكونة من أمه وأبيه وأخويه بشر وبشير، فقد كانت في حالة مدقعة من الفقر والبؤس، أما أمه فلا نعلم عنها شيئاً وأما أبوه فقد كان يعمل طياناً يعيش من ضرب اللبن. وأما

أخواه فقد كانا يعملان قصابين، يبيعان اللحم، ولم يكونا سويين إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبتر اليد. ولا شك أن حالة الفقر التي كانت تعيشها أسرته أوجدت عنده عقدة نقص تجاه الخوف من المستقبل، مما جعله يتجه في شعره نحو الهجاء والمدح التكسبي ليخيف الناس، ويدفعهم إلى السخاء عليه بالمال. وكان من أهم الذين تعرف عليهم ومدحهم عقبة بن مسلم، وخالد البرمكي والخليفتان المهدي والمنصور، وسليمان بن هشام بن عبد الملك.

فكان يصف عقبة بن مسلم بالكرم، وأنه واحد العرب الذي ليس له نظير في سخائه على الفقراء وشجاعته، ولهذا يقصده الفقراء والمساكين، كما تقصد الطير الأماكن التي ينتثر فيها القمح، وأما خالد بن برمك فقد كان بشار يحلب راحتيه بشعره. ومن صفات خالد أن وجهه يشرق بالبشر كلما جاءه أحد يسأله العطاء، وهو كالسحاب الذي لا يترك أحداً إلا ويصيبه بخيره، وأما المهدي والمنصور فيصفهما بالتقوى والكرم والبلاغة، وأما سليمان بن عبد الملك؛ فإنه الفتى الهاشمي الانتماء، يقود الجيوش لإعلاء صرح دولة بني أمية.

وكان بشار قليل التنقل، فهو عاش حياته بين البصرة وبغداد، وقلما غادرها إلا لرحلة قصيرة كما فعل في زيارتيه لخالد البرمكي عندما كان في بلاد فارس ولسليمان بن عبد الملك وهو في حران ووصفه لرحلته هذه، وما سيعانيه في

سفره من مشاق ومتاعب، وأن زوجته خافت عليه من الهلاك في هذه الرحلة.

وتكلمت عن أسرته المكونة من أمه وأبيه وأخويه بشر وبشير، وأن هذه الأسرة كانت فقيرة الحال عبر عن ذلك بشار حين سئل عن سبب ميله للهجاء دون المديح فقال: إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بطبع الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يُكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر، وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى(١) فأبوه كان طياناً يعيش من ضرب اللبن معيشة تقوم على شظف العيش، ويقال إن أخويه بشر وبشير كانا قصابين يبيعان اللحم، ولم يكونا سويين؛ إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبتر.

وحدد المؤرخون سنة ولادته بعام ٩٥ للهجرة، وقتل عام ١٦٧ هـ ببغداد ودفن بالبصرة.

ثم انتقلت للحديث عن أهم ما في حياته وفنه، فوجدت غزله وهجاءه ومدحه. أما غزله فكان مادياً في أغلبه، وفي بعضه كان صادقاً. وكان في شعره الصريح امتداداً لشعر عمر بن أبي ربيعة، وإن اختلفا في لغة التخاطب وفي النهج؛ فحب عمر لم يخرج عن إطار إظهار نفسه بالمعشوق والعاشق، وفي مغامراته التي كانت لا تخرج في معظمها عن إطار العشق لعنصر المرأة، بينما بشار كان في غزله فاحشاً، متهالكاً على اللذة يقوده إلى ذلك ضعف إيمانه، وتأثره بعنصره الأعجمي

(١) الأغاني ج٣ ص ٢٠٧.

الذي كان في أواخر أيام الدولة الفارسية يجنح إلى الحياة المادية الصرفة.

ثم أشرت إلى ظاهرة التأثر والتأثير بين عمر وبشار، فقد جعل بشار نفسه معشوقاً من المرأة تسعى إليه مدفوعة بطابع الغريزة المادية، متمثلاً بعمر. وقد لاحظنا أن معظم من تغزل بهن بشار من الجواري، بينما غزل عمر كان في الاشراف والحرائر، وكان من أبرز من تغزل بهن بشار الجارية فاطمة والجارية عبدة وغيرهما.

وأما أغراضه الشعرية التي نظم فيها بشار شعره فكان الهجاء والمدح والغزل ثم الرثاء والحكمة والفخر. وكان في فخره يحاول تارة أن يكون من العرب الخلص، وتارة يعود إلى أصله الأعجمي فيهاجم العرب وحياتهم ومعتقداتهم، ويثني على الفرس وحضارتهم وديانتهم.

وأما ألفاظه وتعابيره، فقد كانت في معظمها واضحة قريبة من الشعبية بسبب ميله إلى أن يغنى بشعره سواء في الغزل، أو في الرثاء، وقليلاً ما كان يلجأ إلى الغرابة والتعقيد، اللهم إلا إذا أراد أن يظهر براعته في هذا المجال، ويجعل النقاد يعجبون به، ويقدرون صوره البيانية والتعبيرية، ولا ننسى أن الذي ساعده على ذلك تبديه، فقد عاش سنة كاملة في الصحراء العربية يستمع إلى الأعراب، ويأخذ عنهم لغتهم وبيانهم.

وكان يختار لقصائده ما يناسبها من البحور حسب

أغراضه الشعرية، ولهذا نراه ينظم على البحور الطويلة، كالطويل والمديد والوافر، لأنها أدعى للفخامة التي ينشدها لفنه، ثم نظمه أغلب قصائده على البحور القصيرة كالبسيط والمنسرح والسريع والرجز.

وأخيراً تحدثت عن آراء النقاد القدامى والمحدثين بشعر بشار، فكان أغلبهم يفضله على كثير من شعراء عصره كمروان بن أبي حفصة، وحماد عجرد وعقبة بن رؤبة كما أنهم وضعوه في مصاف فحول الشعراء في بعض الوجوه الشعرية كامرىء القيس والقطامي وكان بعضهم يطعن به كإسحاق الموصلي والأخفش وسيبويه.

وبينا أنه لولا الصفة العامة التي اتصف بها بشار وهي الهجاء، لكنت قد جعلت شعره الغزلي في المرتبة الأولى من أغراض شعره لأنه في هذا النوع من الشعر استطاع أن يأتي من الإبداع ما لم يأت به في أي غرض آخر.



المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، طبعة دار الكتب المصرية.

٢ ـ آمالي المرتضى للشريف المرتضى تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٧ .

٣ ـ البيان والتبيين للجاحظ تحقيق : عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٦٠ .

٤ ـ تاريخ الطبري طبعة أولى دار إحياء التراث العربي بيروت.

٥ ـ التبصير في الأدب للإسفراييني طاهر بن محمد تحقيق: محمد زاهد الحسن الكوثري القاهرة مكتبة الخانجي سنة ١٩٥٥ .

٦ ـ ديوان المعاني لأبي هلال العسكري مكتبة القدسي.

٧ ـ ديوان بشار شرحه ونشره أحمد حسنين القرني مطبعة الشباب بالقاهرة.

٨ ـ زهر الآداب وثمرة الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن علي المصري تحقيق: الدكتور زكي مبارك دار الجيل.

٩ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق: أحمد محمد شاكر مطبعة دار المعارف بمصر.
١٠ ـ طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي أبو عبد الله محمد بن سلام دار النهضة العربية بمصر.
١١ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق: عبد الستار أحمد فراج دار المعارف بمصر.
١٢ ـ طبقات المعتزلة لأحمد بن يحيى بن المرتضى تحقيق: سوسنة ديفلز فلزر بيروت المطبعة الكاثوليكية.
١٣ ـ العمدة لابن رشيق القيرواني.
١٤ ـ الفرق بين الفرق لابن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محي الدين محمد القاهرة مكتبةمحمد صبيح.
١٥ ـ الكامل في اللغة والأدب للمبرد مكتبة دار المعارف بيروت.
١٦ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للحاجي خليفة بغداد مكتبة المثنى.
١٧ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن سعد. حيدر أباد دائرة المعارف.
١٨ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله بيروت دار صادر.
١٩ ـ الموشح للمرزباني، تحقيق: علي محمد البيجاوي دار نهضة مصر ١٩٧٥.

٢٠ ـ نكت الهميان في نكت العميان للصفدي، تحقيق: أحمد زكي القاهرة المطبعة الجمالية.
٢١ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية.
٢٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان، طبعة أخيرة مطبعة عيسى البابلي بمصر.

ثانياً: المراجع:

١ ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، لمحمد مصطفى هدارة المكتب الإسلامي بيروت.
٢ ـ أعلام الإسلام بشار بن برد، لإبراهيم المازني دار الشعب سنة ١٩٧١.
٣ ـ بشار وغزله (شعره في عبدة) لأندره رومان.
٤ ـ بشار بن برد بين الجد والمجون لحسين منصور. المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٩٣٠.
٥ ـ بشار بن برد لطه الحاجري. دار المعارف بمصر.
٦ ـ بشار بن برد لعمر فروخ دار النهضة العربية.
٧ ـ تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات دار الثقافة بيروت الطبعة السادسة بدون تاريخ.
٨ ـ حديث الأربعاء لطه حسين دار المعارف بمصر.
٩ ـ شخصيات أدبية بين الشرق والغرب لمحمد كردعلي منشورات دار مكتبة الحياة بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦،

١٠ ـ العصر العباسي الأول لشوقي ضيف دار المعارف بمصر.
١١ ـ مراجعات في الأدب والفنون لعباس محمود العقاد دار المعارف بمصر.
١٢ ـ المعلقات العشر للشنقيطي دار القلم.
١٣ ـ موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، لمحمد زكي العشماوي دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨١.

مكتبة لسان العرب

فهرس الموضوعات

مكتبة لسان العرب